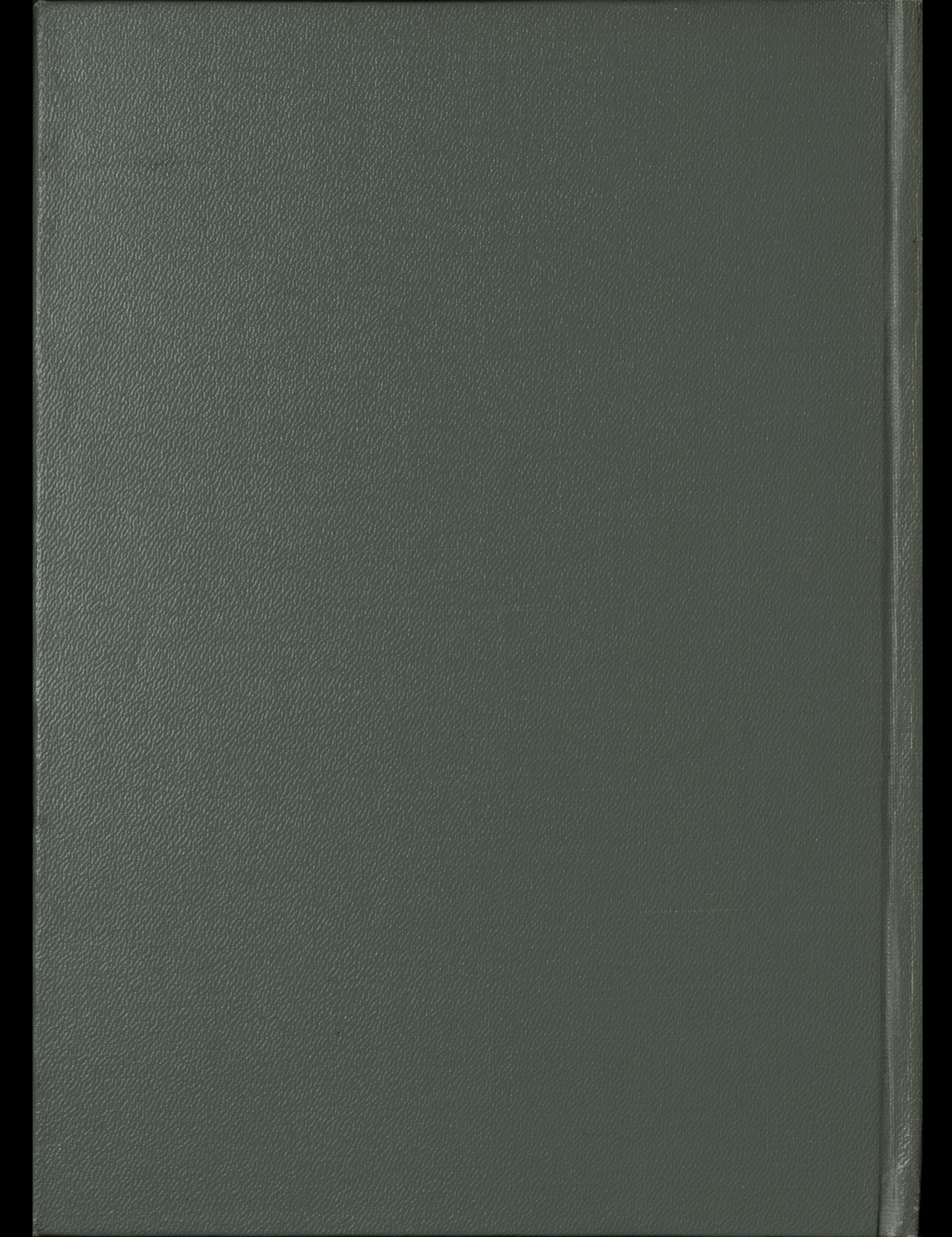




مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

محمد كرد علي

حياته وآثاره

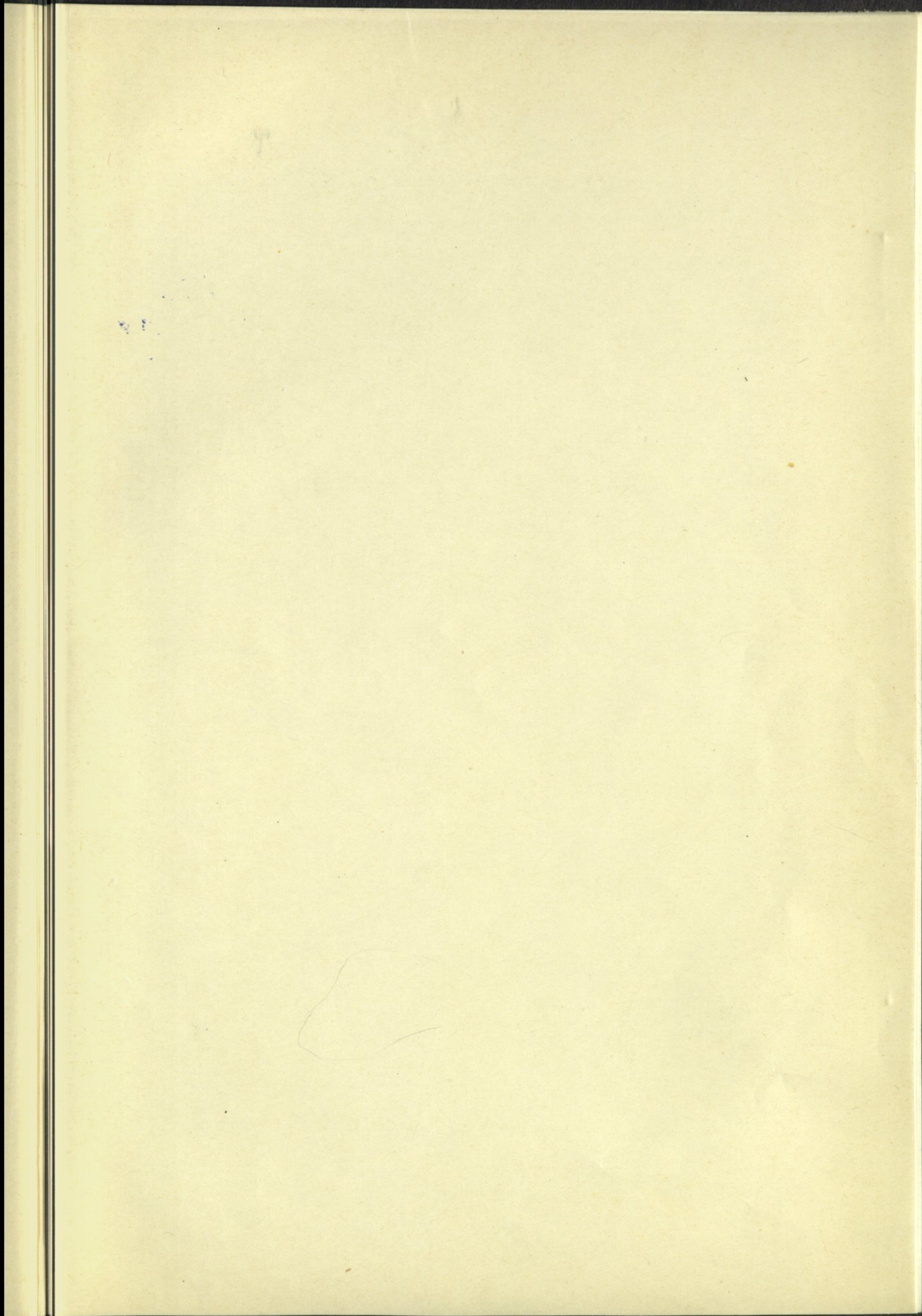
تأليف

الدكتور سامي الدهان

عضو المجمع العلمي العربي

دمشق

١٣٧٤ هـ — ١٩٥٥ م



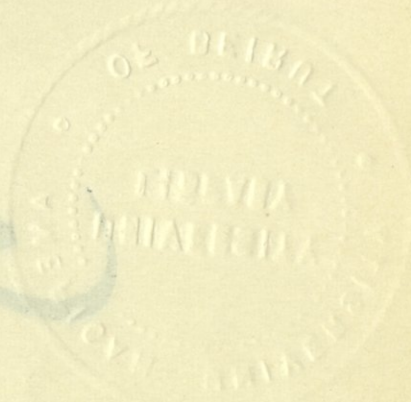
مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق

محمد كرد علي

حياته وآثاره

تأليف
الدكتور سامي الدهان
عضو المجمع العلمي العربي

دمشق
١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م



الاهداء

الى روح العلامة الفقيد الغالي

الأستاذ الرئيس محمد كرد علي

اعترافاً بالجميل وذكرى باسم الجيل

س . د



الأستاذ الرئيس محمد كرد علي
(١٨٧٦ - ١٩٥٣)

مقدمة

حياة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي حافلة شاملة ؛ وقف دون تسجيلها كتّابنا ، وحار فيها المترجمون ، فلم يبدئوا ولم يعيدوا . لذلك خلت صحفنا العربية ومصادرنا الأدبية والتاريخية من ترجمة له أو حديث نافع فيه . ولذلك كانت مهمتنا عسيرة ، فليس لنا من مَعين إلاّ كتبه وآثاره ، وما ترك قلمه في ترجمة حياته ، وما وقع له ؛ فعليها اعتمدنا ومنها اقتبسنا ، وبعباراتها الحرفية أخذنا ، لئلا نحيد عن خطة الدارس النزيه ؛ ونحن لا ندّعي الإحاطة والتوفيق في رسم سيرته أو تعداد كتبه ومقالاته .

وكيف ندّعي الإحاطة في سيرة رجل طوى سبعاً وسبعين سنة في عمل مستمر ، ويقظة عجيبة ، لا يكاد يستقر في بلد حتى ينتقل الى غيره ، فيطوّف في بلاد كثيرة يزور بعضها مرات عدّة ، فيسافر الى لندن ، وبرلين ، وباريس ، ومدريد ، وروما ، وبودابست ، والآستانة ، والقاهرة ، والمدينة المنورة . ولا يكاد يقر قراره في مسلك واحد ، فهو في الصحافة والجامعة والوزارة والمجمع العلمي العربي بدمشق ، والمجمع اللغويّ بمصر ، ومع الشرقيين والمستشرقين .

لقد كان ـ رحمه الله ـ حركةً لا تهدأ في الكتابة والتأليف . وكان لسانه لا ينقطع عن حديث عذب متصل ، ونكتة بارعة تسبق نكتة بارعة ، ضحكة يطلقها لتلحق بضحكة تسبقها ، وقهقهة لطيفة يميل لها جسمه ، وتنفرج

أساريره ، فكأن عينيه الشهلاوين تبتسمان من وراء نظارتيه ، ووجهه الأبيض المشرق يحمر بالسرور والنضرة . ذلك أنه يحب الطرب والموسيقا والجمال ، ويعشق الحكاية والقصة والنكتة ، ويهيم بالمجلس اللطيف والعشرة الصافية ، فيفيض بالسحر الحلال من جمل الدعابة والتحبب ، وتنقلب نفسه الكبيرة في دقائق الى براءة الطفل وسحر السذاجة ، فيخيل اليك أنه أول مرة يضحك فيها بعد طول عبوس ، وتستطيع حينذاك أن تطلب فتجاب ، وأن تقول فيستمع اليك ، على أن تتلطف في الحديث ، وتبتعد عن السفاسف في القول ، فان كنت لا تملك شيئاً من هذا فاسكت .

ذلك لأن كلمة عابرة ونكتة سافرة ، تؤذي سمعه وذكاءه ، فينقلب المجلس إلى كدر ، وتسمع ما لا قِبل لك به ، وتعرف حينئذ أن ليس لك معه لقاء ، ولن تملك معه الصفاء ، وخير في هذا ، أن تزايل المكان وتبرح المجلس ، فالرجل أديب فنان لا يرتضي لجليسه غير الرقة في الأسلوب والدقة في الحديث .

وأما إذا كنت تتحدث في الجهد والسعي والصبر على العلم ، فهو شديد الإقبال على المشتغلين ، كثير التحمس للمجتهدين ، يحب النظام ويعشق التدقيق والتحقيق ، ويكره الفوضى ويحارب الرياء ، لا يفرّق بين دين ودين لأنه يمقت التعصب ، وطبقة وطبقة لأنه يرى الناس أخوة . وانما همّه أن يرى من يعمل فيجيد ، ويقرأ فيفهم ، لا يؤخذ بالشهادات ولا يخدع بالألقاب ، فاذا كان لك سعي حميد إلى جانب ذلك رفعك فوق مكانتك ، وأحبَّك فوق رتبتك ، ومال إليك بسمعه ، ودعا لك في مجالسه ، فأنت تطير بجناحين من مديحه ، ذلك لأنه أديب عاطفي يحبّ ويكره ، ويذم ويمدح ، فاذا ارتسمت صورة من حبّ لم يطمسها واش ، واذا ارتسمت صورة من كره لم يمحها مادح ، إلاّ اذا رأى بالتجربة وخبر بنفسه ، وقرأ بعينيه ، فأنت حيث يضعك أدبك وقلمك وعلمك .

دخلتُ عليه كثيراً في بيته ، والعباءة على كتفيه ، بـ « جسرين » أو في دمشق ، فرأيته يذيب نور عينيه في صحيفة أجنبيه وصلت منذ أيام ، يقرأ فيها عن رأي الغربي في الشرق أو مجلة مستشرقة تنشر في أدبنا وثقافتنا ، فهو شديد التتبع لما يقع وراء الحدود وفي الآفاق العليا ، وهو شديد النهم لمعرفة أخبار المطبوع والمخطوط ، عاش عُمره لهما وقضى في سبيلهما .

كانت المقالات والكتب تعرض عليه فيتولاّها بالنقد والتجريح والاصلاح والتبديل قبل النشرِ ، لا يسكت عن خطأ ولا يخشى في الحق لوماً . بل يقول في صراحةٍ ما يعتلج بقلبه ويلجّ في صدره ، كأنه يستريح بعد القول ، لا يستطيع أن يكتم بغضاً أو نقداً ، وهذا الخلق كثّر أعداءه وجمع الخصوم عليه . وهو عصامي يعتزّ بأنه صمد كثيراً للحياة والمبغضين ، ويفخر بأن كتبه أوصلته الى الوزارة ورئاسة المجمع ، وقد بلغها عن كفاية وعلم ، وبلغ كثير غيره عن ضعة في النفس ، وذلّة في الحياة ، وتمسح بالسلطان .

رأيته يبكي حين دخل عليه عالم أجنبيّ ، كان يسعى إلى يدي رئيسنا ليقبلها ، فهاله إكبار الغرباء لسعي العلماء ، وقنع من جدّه بهذا الجزاء . ولا تسل عن ذاكرة عجيبة ومقدرة في الوصف غريبة ، حين سأله العالم عن أمور عفى عليها الزمان منذ بعيد ، فقد كانت ذاكرته تزداد مع الشيخوخة ، وتقوى كلما نحل جسمه وضعفت عيناه .

كان في عشر الثمانين من عمره يعمل لكتاب « البيزرة » في مخطوطة مصحفة ، فما نزلت مخطوطتها من يده ، ولا ملّ صحبة سطورها ، فهو يستلذّ العمل في سبيل المجمع العلميّ : مطبوعاته شاهدة على قوة ، ومجلته دلالة على استمرار ، لأنه رأى ولادة المجمع العلمي بدمشق ، ووقف حياته في الدفاع عنه ، فاستهدف لغضب الطامعين في دخوله ، والغاضبين لوجوده ، والحاسدين لجهوده .

وبعض الناس لا يريد أن يعمل ولا يريد لغيره أن يعمل . وقد شبّ كثير مع الرئيس وشابوا ، فأصبح في سدّة العلماء المشهورين ، وما يزالون من دمشق في شهرة فقيرة ، وعدّة من العلم يسيرة ، وهو في بحر من رسائل المديح تأتيه من الغربيين والشرقيين .

يعمل الموظفون في دوائرهم ، وحولهم من يعينهم أو يكتب لهم ، ويعمل الرئيس في كتبه وحده ، يكتب بخطه ، ويصحح بقلمه ، ويراسل بيده ، ولا معاون يكل اليه الأمر ، أو يكتم له السرّ ، وقد يخط عشرات الرسائل ويصحّح عشرات الصفحات يحققها ، وينظر في مقالات غيره من الأعضاء والأدباء والعلماء ، وهو لا يشكو ولا يتذمّر ، لأن الخلود يكلّف النوابغ جزية يسيرة : هي أن تصمد قلوبهم لهذا السعي المتواصل ، ولو دلفوا إلى الثمانين .

رحم الله محمد كرد علي ، إنه لم يرحم قلبه ، ولم يشفق على عينيه ، ولم يحرص على صحته ، وإنما أنفق ذلك في سبيل هذا الوطن وأبنائه ، فله من الوطن الإكبار والتخليد ، ومن المجمع العلمي العربيّ دمع لا ينفد ، وحسرة لا تنقضي ، ومكان لا يُنسى .

ولقد أراد مجمعنا العلمي بدمشق أن يرسل في ذكراه سطوراً موجزة ، تصف حياته وتعدّد آثاره ، يقدّمها إكليلاً الى ضريحه الخالد ، فكلفني وشرفني بهذه المهمة ، فبذلتُ ما وسعني ، وهذا جهد المقل ، داعياً الى الله أن يعطر ضريحه بوابل رحمته ، وأن يسكنه فسيح جنته .

دمشق { في ٩ جادى الآخرة ١٣٧٤ / و ٢ شباط ١٩٥٥ } سامي الدهان

حياة الرجل

١٨٧٦ - ١٩٥٣

أيام الحداثة والدراسة — في غمار الصحافة — في المجمع العلمي العربي

« وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية »
« ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللاسلام »
« والمدنية الغربية »

محمد كرد علي في « المذكرات »



الفصل الأول

أيام الحداثة والدراسة

١٨٧٦–١٨٩٢

ولادته قدم جدّه «محمد» من السليمانية [1] بشمالي العراق ، وهو تاجر كرديّ من الأيوبية ، فاتصل بالشام ورحل الى الحجاز والأستانة ثم عاد الى دمشق واستقر فيها [2] . ونشأ أبوه «عبد الرزاق» في الخياطة أول الأمر ، ثم عمل في التجارة فربح [3] ، واشترى مزرعة في الغوطة بقرية «جسرين» ، وتزوج امرأة شركسية أصلها من قفقاسيا [4] ، فولد له منها غلام ، في أواخر صفر سنة ١٢٩٣/١٨٧٦ ، سمّاه «محمداً» ولقبه بـ «فريد» .

---

(١) بلدة قائمة على سفح جبل مارمير ، تبعد عن كركوك ٧٢ ميلاً .

(٢) قص علاّمتنا الراحل في خطط الشام ما وصل اليه من أن خلافاً وقع بين جده ومحافظ الحج ، سافر له الجدّ شاكياً الى الأستانة ، وخاب في سعيه فافتقر وهلك – خطط الشام ٦/٤١١ .

(٣) قصّ علينا كذلك من أمر ابيه وسفره الى الأستانة واتصاله بكبار القوم هناك وفي دمشق ما نحيل به القارئ الى المذكرات ، بالصفحات ١٧ ، ٢٠ ، ٢٤٣ .

(٤) يقول الرجل في مذكراته ص ٥ : « فأنا على رغم من آمن وكفر من جنس آريّ لا يقبل النزاع » .

الدراسة الابتدائية

ودبّ الطفل « محمد فريد » في بيت أبيه ، في زقاق البرغل ، وأحاطته أمه بعناية فائقة ، ومنحه أبوه عطفاً غالياً ، ثم أسلمه في السادسة من عمره الى مدرسة كافل سيباي الأميرية الابتدائية « وهي المدرسة السباهية »[1] ، يتعلم فيها خلال العام ، فاذا كانت العطلة الصيفية استسلم الصبيّ الى البيت ، يسرح ويمرح ، يطوّف الماء عصر كل يوم في صحن الدار ، ويسبح في الحوض حتى يتبرّد . فاذا سار الى « جسرين » ركب مع أبيه على فرسه ، واجتاز الغوطة ، ورأى الظلّ والنور يتلاعبان طول الطريق على رأس أبيه ، ويجريان أمامه في خطوط عرضية تعرض وتدق ، ورأى الانسان والحيوان يعيشان في خدمة المدنية وأهلها ، وشهد الحصاد والرجاد ، والبيادر والنواطير ، فكان يقضي نُهُرَه في الحقول الواسعة ، يطيّر طيارته في الهواء ، أو يسبح في ماء النهر ، أو يعبث ساعات من نهار بالأرجوحة مع أخته تقذفه ويقذفها[2] .

لذلك كان الصيف حلماً من أحلام الصبيّ ، وكانت القرية سكناً ومرتعاً خصباً لخياله وآماله ، يستمتع بالضفادع في مناقعها ، ويطرب لأصواتها ، ويأنس بالفلاّح ويسرّ لدعابته ، فأحبّ القرية وعشقها ، ووقعت « جسرين » من نفسه موقعاً خالداً ، عاش فيها أحلى حياته ، وسجّل فيها أجمل مؤلفاته .

وترعرع الطفل في كنف الرعاية والعناية عند النساء كذلك ، وأحسّ بذلك منذ نعومة أظفاره ، فخلّف في نفسه حساً دقيقاً رائعاً ، لبث يصحبه بعد الستين والسبعين ، إذ يقول بعد نصف قرن :

---

(١) انظر ثمار المقاصد ليوسف بن عبد الهادي ، وتعليق الدكتور اسعد طلس ، بحاشية الصفحة ٩٩ .

(٢) المذكرات ١٢ .

«شعرتُ أول ما وعيت على نفسي بعطف النساء ، وكنت أحبّ الاجتماع اليهنّ ، وأفضّله على الاجتماع الى أترابي ، وأُحبُّ سماع كلام من يختلف منهن الى دارنا في القرية ودارنا في المدينة ، ومنهنّ من أرضعنني فصرتُ ابنهنّ من الرضاع ، وغدا أولادهن أخواتي وإخوتي . وكان الكهلات والشابات والعجائز من أولئك النسوة ، الفلاحات منهن والبلديات يضممنني إلى صدورهن ، ويقبلنني ، وأضمهن وأُقبلهنّ» [1] .

وهكذا كان لطفولته المرحة ، وحياة الطبيعة وعناية النساء به أثر كبير في حياته ، فقد كان يقول : «وبقيت بعد ذلك أُوثر مجلس النساء مهما كان لونه على مجالس الرجال الى أن شببت وشبت» . ورافق النساء والطبيعة ، شعور بالموسيقا والطرب ، فقد كانت أمه تصحبه الى حفلات الاعراس لذلك الزمان ، فيشهد «التخت» ويسمع الى المغنيات ، وينظر الى الجمال والفتنة فيما يرى وفيما يسمع ، فنشأ عنده حسّ الفنّ ، ونما حتى عشق الألوان والأصوات . واحتلّ ذلك من نفسه موقعاً كبيراً ، وأثار في أدبه وكتابته سطوراً لا تمحى ، ظهر أثرها فيما كتب وفيما سطّر ؛ فهو يذكر بعد ستين عاماً لون حذائه للعيد ، وما يقدم من حلوى في البيوت ، وما يقوم من ملاعب في الشوارع .

كلّ هذه المشاهد الفاتنة ، في المدينة والقرية ، أثّرت في عقل الصبيّ واشتركت في تفكيره وذكائه ، فقد قرأ في كتاب الطبيعة ، وسبح في مفاتنها منذ صباه ، وتفتحت عيناه على أجمل ما يسرّ العيون ، فأشرقت في نفسه ألوان الفهم ، وأشربت روحه حبّ النكتة والقصة والخيال .

فلما كان في السادسة زار مع أمه بيت الشيخ محمد الطنطاوي بالقيصرية ،

---

(١) المذكرات ١٤ .

ووقع بصره على رفوف للكتب ، فشهق لمرآها ، وسأل عنها فأجابته : « إنها كتب يقرأ فيها العلماء » فأحبّ ألوانها وطريقة ترتيبها ، ودعاه ذلك الى أن يقول في لسان الصبيّ الساذج : « أنا أحبّ أن أتعلم هذه الصنعة » ؛ ودفعه أبوه الى الكتب ، ودفعته أمه الى حبّها ؛ واندفع هو بسائق وعده الى هذه الصنعة ، مع أنه يقول في أبيه : « ووالدي كان عامياً بقرب من الأمية ، أنفق عن سعة ليعلمني ، فكان مدة سنين بدر الرواتب على أساتذتي ، وقد ابتاع لي مكتبة »[1] . ولهذه المكتبة وهؤلاء المعلمين أثر في تربيته وثقافته وتفوقه على أقرانه .

* * *

الدراسة الثانوية

ولما أتمّ الدراسة الابتدائية حوالي سنة ١٨٨٦ م ، انتقل الى الدراسة الرشدية ، وسمي « محمد تعديل » نسبة الى حي كان يسكنه أبوه على عادة ذلك الزمن . وراح في هذه الحقبة يقرأ ويقرأ حتى هام بالمطالعة ، وأصبح يسهر الليل حتى الهزيع الثاني منه ، في قراءة جريدة أو كتاب . فضعف بصره ، وساءت صحته ، ونصح له الأقارب والأصدقاء في الاعتدال ، ولكنه مع ذلك ما كان يذعن إلا حين يُطفئ أهله المصباح لينام ويستريح .

وأنّى لنفسه المتيقظة أن تستريح ، وهو في كل يوم يقع على ألوان من الإغراء في المطالعة والجدّ ، فقد دخل على صفه ذات يوم ، رجلٌ في عمامة وجبة ، يتحدث في لهجة مغربية ، فدهش الطفل لما رأى ، ولما سأل عنه قيل له : إنه المفتش العلامة الشيخ طاهر الجزائريّ ، وهو أمنع من شيخه وأستاذه ، وأنه يستطيع أن يعزل الأستاذ ، فقال في نفسه : « ياليتني أكون مثله ! » .

(١) خطط الشام ٤١٣/٦ .

وهكذا أعجب وهو صغير بالكتب الجميلة المصفوفة والعلماء المهيبين المحترمين ، فأحب أن تكون له الكتب في بيته حين يكبر وأن يكون في العلماء المهيبين لعصره ، فاستزاد من الكتب ، وأطاعه أبوه فابتاع له جملة منها في التركات . ـ وكانت تباع التركات في الجامع الأموي بعد صلاة الجمعة ـ وصحب الكتب وقرأ فيها ، وراح يعبُّ من الصحف ، وهو في الثالثة عشرة من عمره : «بدأت أقرأ الجرائد اليومية في الثالثة عشرة من عمري ، وأنا في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية ، وبعد حين اشتركت بجريدتين : بيروت الأسبوعية ولسان الحال نصف الأسبوعية» . ووصف لنا ما كان يقرأ فيها : «أولعت بمطالعة لسان الحال لأن فيها أخباراً طريفةً معربة عن الانكليزية ، واشتركت لما كنت في السنة الثانية من المدرسة الثانوية بجريدة افرنسية أسبوعية تصدر في باريز اسمها «صديق الريف» ، وأطالع بعض الصحف التركية الصادرة عن الأستانة ، ولا سيما المجلات الأدبية والتاريخية»[1] .

وبذلك انتقل من كتاب الطبيعة المفتوح في صباه الى كتب مطبوعة في شبابه ، ومال الى الصحف والمجلات يقرأ فيها حتى عشق المطالعة ونال منها حظاً وافراً في ثقافته ولغته وأسلوبه ، ونالت من صحته وعينيه . وهذه الثقافة لم تقف على لغة واحدة ، وانما اشتركت فيها ثلاث لغات ، كان يقرأ عن آدابها في صحفه ، وهي العربية والتركية والفرنسية[1] فسبق اخوانه ، وفاقهم ثقافة في الحياة ، ونشأ فيه ميلٌ عميق الى الخيال والأدب والصحافة والثقافة العامة ، وسنرى أثر ذلك في حياته المقبلة ، حين أصبح صحافياً وغدا منشئاً مترسلاً ، يعمل للثقافة الغربية الجديدة والثقافة العربية القديمة ، يشرك هذه

(١) المذكرات ٥١ .

وهذه معاً في جهده ، ويتخذ الطبيعة مصدر وحيه ، ومن الرحلات مادة كتابته ، ومن الآثار والكتب مجموع دراساته وتآليفه .

ولن نستغرب قوله : « وما بلغت السادسة عشرة حتى أخذت أكتب أخباراً ومقالات في الجرائد » ، بل هو يعجب لهذا الأثر فيقول : « ما كنت أظن أن هذه البداءة تنتهي بي الى الغرام بالصحافة » (١) .

وتعلق الشاب في دراسته الثانوية بالشعر العربي وبالسجع المنمق وشارك في الأسلوب القديم ، وعكف على شيوخه يعب من علمهم وأدبهم ، وهم من مشهوري عصره لبلده : السيد سليم البخاري ، والشيخ محمد المبارك ، والشيخ طاهر الجزائري . وأخذ منهم حب الكتب القديمة ، وعشق هذه الثروة الكبيرة ، فجمع في نفسه حباً عارماً لكنوز الأجداد وآثارهم وكتبهم ، فقضى صحبتهم أكثر عمره .

ومن العجيب أن يتجاور القديم والحديث في نفس هذا الشاب وأن تتصاحب الثقافة الصحفية الجديدة والثقافة العربية القديمة ، وأن يعيش في قلبه شعوران عميقان أحدهما يدفعه الى أن يأخذ بحظه الكبير من قراءة هذه الكتب الصفراء المثقلة بالهوامش والتعليقات لعله يفهم العقل العربي على أربعة عشر قرناً فيه التاريخ والأدب ، وثانيهما يدفعه الى أن يأخذ بحظه الواسع من قراءة هذه الصحف الجديدة المصورة والمبوبة التي لا تمت الى القديم بشيء ، وانما تحمله الى أجواء البوسفور والسين .

لذلك عاش في مدرسته الثانوية ، وقد ثقف من العربية على شيوخه ، وأخذ من الفرنسية بالمدرسة العازارية ، حتى ترك دراسته الثانوية ، وهو على شيء كثير من الثقافة العامة كما كانت لزمنه ، والقرن التاسع عشر يشارف الاحتضار . والذين يعرفون القرن التاسع عشر في الشام يشهدون بأن الأمية كانت ضاربة بجرانها في هذا البلد ، وأن الكتب المطبوعة نادرة عزيزة ، وأن المتعلمين أندر من الكتب ، لذلك سبق الشاب زمانه ، وكان « فريداً » حقاً ، كما لقبه أبوه .

(١) المذكرات ٥١ .

الفصل الثاني

في غمار الصحافة

١٨٩٢ — ١٩١٨

في الوظيفة بعد أن قضى الشاب في دراسته الثانوية سنوات من عمره ، دخل غمار الوظيفة على عادة أقرانه ، وهو في السابعة عشرة ، فكان موظفاً كاتباً في قلم الأمور الأجنبية ، سنة ١٨٩٢ ، وكان يجيد الفرنسية والتركية والعربية . ولسنا نعلم مدى رضاه عن عمله هذا خلال ست سنوات ، وما كان يعترضه أثناءه ، وإنما عرفنا أنه كان معتزاً بفرنسيته : « ومعرفة المسلم لهذه اللغة أمر مدهش آنذاك » . ويبدو أن اللغة أعانته على الوظيفة ، ودفعته الى الترجمة فشرع بنقل رواية فرنسية هي « قبعة اليهودي ليفمان » أعانه في سبكها أستاذه الشيخ محمد المبارك .

* * *

في التحرير وشرع بعد ذلك يرسل في الصحف مقالات باسمه يصفها بقوله : « لم تصل الى أكثر من أقوال مبتدئ » ، وقوله : « لم أكن يومئذ أكثر من طائر لا زغب له ، أمام بواشق كاسرة »[1] .

---

(١) المذكرات ٢١ .

وشجّعه هذا الى أن يدخل في تحرير الصحف ، سنة ١٨٩٧ ، وهو في الثانيـة والعشرين : «ويبلغ بي الحال الى أن أحرر أول جريدة ظهرت في دمشق ، واطرد صدورها مدّة ، واسمها الشام ، وكانت تصدر أسبوعية لصاحبهـا مصطفى أفندي واصف الشقللي ، مدير مطبعة الولاية ، ومدير إطفاء الحريق . وفي مطبعة الولاية كان يطبع جريدته ، ولم يكن يحسن الكتابة بالعربية فاتكل على صهره أديب أفندي الطناحي المصري ، وكان هذا يلفق بين جمل يحفظها لبعض الكتاب المحدثين ، ومنها عبارات لأديب اسحق ، ويصوغ من عنده بعض جمل . واتكل أيضاً على اسماعيل افندي النابلسي من أبناء الأعيان ، وكلا الرجلين لم يدرس آداب اللغة العربية الدرس المطلوب»[1] .

ثم قال : «ملّ صاحب الشام ، على ما قال ، من إعنات هذين المحرّرين له ، فعهد إليّ بتحرير جريدته ، ولما أخذتُ بالنقل عن التركية والفرنسية شعرتُ بخطورة العمل الذي وسّد إليّ ، وأشد ما كان يؤلمني كابوس المراقبة ، وما ألقاه من الغيظ حتى يؤذن للجريدة بالطبع» .

ولبث الشاب يحرّر في هذه الجريدة ثلاث سنوات ، على الرغم من كلّ ما كان يعترضه فيها ، فقد رضع لبان الصحافة قارئاً صغيراً على مقاعد الدرس ، وغذاها شاباً وهو لمّا يبلغ الخامسة والعشرين ، فظهر في حياته أول أثر من آثار نشأته وثقافته وقراءاته . ولم يقف عند هذا ، بل راح يكتب لكبرى الصحف المصرية آنذاك ، وهي مجلة «المقتطف» وذلك لأن صاحب المقتطف شكا الى الأمير شكيب أرسلان شدة الإرهاق الذي يلاقيه من تحرير صحيفته كلها بنفسه ، وهي في حجم يزيد على مئة صفحة في كل شهر ، فأحاله

(١) المذكرات ٥١ .

على صديقه الشاب محمد كرد علي ، وقَبِل هذا مغتبطاً ، فأرسل اليها أولى مقالاته : « أصل الوهابية » ، وأصبح ذلك سبيله الى الشهرة ، حيث يقول في مذكراته : « وبكتابتي في هذه المجلة امتدت شهرتي »[1] .

بهذا خرج الشاب من نطاق إقليم ضيّق محدود هو الشام ، الى إقليم واسع كان معدن الصحافة وموضع الثقافة ومصنع الكتابة ، وهو مصر . وهذا الذي نقل الشاب من ميدانه الاقليمي الى جوار الأعلام المشاهير .

* * *

في مصر

ولا شك في أن آفاق سوريا ضاقت في عيني محمد كرد علي فطمح الى آفاق كبرى ، وحلّق خياله في سماء الغرب ، لما كان يقرأ منذ طفولته عن أخباره وآثاره ، فأحب أن يزوره ليعبّ من ثقافته ، وأعرب عن هذه الأمنية في صدر كتابه « غرائب الغرب » : « كان من أعظم أماني النفس منذ بضع سنين أن أرحل الى أوربا رحلة علمية أقضي فيها ردحاً من الدهر ، للتوفر على دراسة حضارة الغرب من منبعثها ، واستطلاع طلع المعاهد التي منها نشأ المخترعون والمكتشفون والفلاسفة المتزهون ، والعلماء العاملون ، والساسة المستعمرون ، والقادة الغازون ، والتجار والصُنّاع والزراع والماليون وهم على التحقيق مادة تلك المدنية وهيولاها »[2] .

ولذلك قرّ رأيه على مغادرة بلاده الى باريس لقضاء بضعة أشهر للدرس والنظر ، ولا عجب في أن يقصد باريس دون غيرها من العواصم ، فقد تأثر بما قرأ في الفرنسية من غير شك ، وأُخذ بجمالها وروعتها بما تلقنه في العازارية وغيرها عن أساتيذه . وسافر سنة (١٩٠١) وهو في السادسة والعشرين .

---

(١) المذكرات ٥٢ .

(٢) غرائب الغرب ٤ .

ودخل مصر ، ونزل بها أياماً يرحل بعدها الى عاصمة الفرنسيين ، ولكن أصحابه في القاهرة عرضوا عليه البقاء ، وحدثه صديقه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا[1] صاحب المنار أن يحرّر في جريدة «الرائد المصريّ» لصاحبها نقولا شحاده ، وهي نصف أسبوعية فقبل . وكانت هذه الجريدة تنال من أصحاب المقطّم بتشجيع المؤيد ، وكان صاحبها جاهلاً بالعربية ، ومع ذلك ظلّ محمد كرد علي ، يحرّر فيها ، فقد كان يستمتع بصحبة المصريين من العلماء ، وينتفع بالكتّاب من النازلين في أرضها ، فتعرّف الى محمد المويلحي وابنه ابراهيم ـ وكانا يحرّران «مصباح الشرق» ـ والى الشيخ محمد عبده ، وكان يدرّس في الرواق العباسي بالأزهر ، فحضر الشاب دروسه في التفسير مرتين في كل أسبوع ، وغشي مجلسه الخاص بـ «عين شمس» مرة في الأسبوع ، فتعرّف الى جماعة من الفضلاء والعلماء ، وانتفع في الاستماع اليهم ، كما انتفع بذلك الشاعر محمد حافظ ابرهيم .

وقد سجّل في مذكراته هذا الاعتراف فيما بعد قائلاً : «وكان يوم الاستقبال في داره بعين شمس أعظم واسطة لمعرفة طبقات من أعيان الأمة وعلمائها وقضاتها ورجال سياستها وغيرهم»[2] . وكان الفضل في تقديمه الى الفضلاء من المصريين لصديقيه : رفيق العظم والسيد محمد رشيد رضا .

وقد ذكر كثيراً من المصريين والسوريين تعرّف اليهم ، وكلّهم في الأعلام المشهورين ، خلّفوا صفحات نيّرة في حياة العصر الفكرية والأدبية ، أمثال : قاسم أمين ، وفتحي زغلول ، ابرهيم اليازجي ، يعقوب صروف ، فارس نمر ، حافظ ابرهيم ، خليل مطران ، عبد العزيز فهمي ، جرجي زيدان ، علي يوسف ،

(١) المذكرات ٥٥ .
(٢) المذكرات ٢٥١ .

مصطفى كامل ، سليمان البستاني ، أحمد تيمور ، أحمد زكي ، ولي الدين يكن ، شبلي شميل ، وغيرهم كثير من المعاصرين .

ونحن إنما بسطنا هذه الأسماء ، وأفضنا بعض الافاضة في تعدادهم لننتهي الى أن الرجل دخل جامعة أدبية فكرية واجتاز المرحلة الأولى فيها ، فتكونت ثقافته ، وقويت معرفته ، وأخذ من كلّ بطرف ، فعوضت عليه سني الدراسة العالية ـ كما نسميها الآن ـ وكفته مؤونة الشهادة العليا والألقاب الجامعية وما اليها من تهيؤ ومحاضرات ، ولا ريب في أن هذه المحاورات والمجالس كانت أشبه بالمحاضرات العامة ترهف العقل وتغني الثقافة .

ولعل مشاهدة الأعلام والاجتماع اليهم تزيد في ثقافة القارئ ، وتكسبه بالحسّ تجربة ومعرفة . والرجل نفسه يعترف بهذا الأثر في مذكراته : « ومن أعظم ما استفدته من رحلتي هذه الأخذ عن عالم الإسلام والإصلاح الشيخ محمد عبده وحضور مجالسه الخاصة والعامة »[1] .

ولسنا نتطرّق الى وصف البيئة في مصر ، وحال السياسة والخطابة ، وقيام الدعوة الى الوطنية والاستقلال ، وما كان في الصحف المصرية الكبيرة من أدب وبيان ، لنشير الى أثرها في أدب الشاب وفي روحه ، فلذلك كتب يحسن الرجوع اليها[2] في فهم العصر والمصر والأثر .

* * *

(١) خطط الشام ٤١٣/٦ .

(٢) نضرب لذلك مثلاً كتاب أنيس المقدسي في العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث ، وكتاب عمر الدسوقي في الأدب الحديث ، وكتاب عبد الرحمن الرافعي « مصطفى كامل » مصر سنة ١٩٥٠ .

عودته الى دمشق

وعلى كلٍّ ، لم يطل مقام الرجل في مصر ، فقد سلخ عشرة شهور فحسب ، قام بعدها وباء في القطر ، اضطر محمد كرد علي إلى الرحيل عنها فهجرها الى دمشق ، وعاد الى وسطه الضيّق ، يتحمّل عنت الحكام ، وجهل الجهلة ، وحسد الحاسدين ، ولعله صرّح إثر عودته ببعض الآراء الإصلاحية التي حملها معه من مصر ، ونثر بعضاً من الأفكار الاجتماعية ، فحملها الجواسيس والوشاة ، ممن يتصيَّدون الغائب بعد أوبته بتصريح أو تلميح ، وانتقلت الى آذان السلطة الحاكمة ، فضايقته وراقبته ، ورأت أن تتخلص منه بالسجن أو بالإبعاد .

لذلك ألصقت به تهمة الطعن على أحد الأعيان ، أو كتابة المناشير ضد الوالي ، وشرّدته عن داره أياماً ، قضاها مختبئاً في قرى الغوطة ، في خوف وذعر ، وصفها صديقه الأمير شكيب أرسلان [1] بقصيدة طويلة نروي منها :

فكم في الزوايا تخبّأ فتى طريد الكتاب شريد القلم
ونحو « المليحة » رام الخفا وكم بالمليحة من متَّهم
وكم ذا بـ « جسرين » من ليلة على مثل جمر الغضا في الضرم [2]

وزاد هذا التضييق حتى ذاع في الأسماع أنه منفيٌّ الى رودس أو الى فزان ، فسئم التخفي ، وتحمّل ثانيةً الى مصر ، وهو في الثلاثين من عمره تقريباً .

---

(١) قامت بين الراحلين صداقة متينة ، وشابها بعض الكدر حين اقترحت بعض المراجع جعل الأمير شكيب أرسلان في رئاسة المجمع ، كما في المذكرات ٢١٨ - وفي مذكراته ١٠١٦ يقول : إن المجمع قرر أن يستعاض عن تأبين الأمير شكيب بكتاب يؤلفه أحد الأعضاء في سيرته السياسية والأدبية . ولكن هذا الكتاب لمّا يصدر بعد ، على شدة وفاء الأمير للراحلين من أصدقائه كأحمد شوقي ، ورشيد رضا ، ونحن في سبيل انجاز كتاب عنه يصدر قريبا .

(٢) انظر بقية ابياتها في خطط الشام ٤١٤/٦ .

في مصر
سنة ١٩٠٥

دخل مصر، فتولى تحرير جريدة «الظاهر»[١]، وهي يومية صاحبها السيد محمد أبو شادي، وأصبح بعد قليل رئيس تحريرها. وأصدر معها مجلة «المقتبس» الشهرية، وطبعها بمطبعة الظاهر، وراجت المجلة في الناس. وحين توقفت جريدة الظاهر[٢] طفق يترجم روايات عن الفرنسية لمجلة «مسامرات الشعب» وصاحبها خليل صادق.

ودعاه بعدها صاحب «المؤيد» الشيخ علي يوسف للتحرير في جريدته، وعليها قامت شهرته، فهي الدعامة الثانية بعد المقتطف في تعريفه الى المصريين، فدخل في صميم حياتهم، وأصبح يعرف ما تقف عليه الخاصة فحسب. وشغفته البلاد حباً حتى قال: «وأصبحت في مصر كأني في بلدي تهمني من وراء الغاية سياستها وسيادتها»[٣].

وظل يحرر في «المؤيد»، وتنتشر مقالاته فيها، وكانت لسان حال العالم الاسلامي الواسع، فعرفه القاصي والداني، وغدا ملء الأسماع وموضع الرعاية، وحقق حلماً من أحلامه.

وجاري في «المقتبس» ما كان عليه الغربيون من نشر البحوث العلمية والأدبية والتحقيقات التاريخية، فكان ينقل عن مجلات العالم أنباء في العلم والحضارة والتقدم والاختراع. ويكتب في أعلام المشارقة والمغاربة، ويعرّب روايات عدّة عن الفرنسية، وينشر الى ذلك كتباً قديمة عن مخطوطات قديمة نادرة، فهو بذلك جمع بين القديم والحديث، وهذا أثر آخر من آثار دراسته

(١) المذكرات ٥٦: «لمحمد بك أبي شادي».
(٢) توقفت جريدة الظاهر لعجزها عن دفع الرواتب – المذكرات ٥٩.
(٣) المذكرات ٥٩.

الأولى ، فقد تثقف على الشيوخ فأحب المخطوطات والكتب القديمة ، وأخذ من الصحف خلاصات الأنباء والآراء الغربية .

ومجموعة مجلة المقتبس من أنفس ما تذخر به مكتبتنا العربية الحديثة في علوم اللغة والأدب والتاريخ ، إلى مقالات في الرحلة ووصف المخطوطات في عواصم الشرق العربي ، وقد بلغت تسع مجلدات في (٦٥٠٠ صفحة) صدر ثلاث منها في مصر وسائرها في دمشق .

ومن أراد أن يعرف الموضوعات التي طرقها الرجل في جريدة « الظاهر » و « المؤيد » و « المقتبس » يستطيع أن يرجع إلى كتبه فانه واجد فيها نصوص أكثر هذه المقالات ، وبها يحكم على ذوقه في النقد ، وسعيه في الاصلاح الاجتماعي وحبّه للقديم من تراثنا ، ووقوفه على كتب الغربيين في الاجتماع والرواية والقصة .

* * *

في سوريا

لبث محمد كرد علي في مصر حتى سنة ١٩٠٨ ، فلما أعلن القانون الأساسي ، وسقطت دولة الاستبداد ، ظنّ الناس خيراً بالدولة العثمانية ، فتحمَّل الرجل الى وطنه ووصل دمشق ، فأنشأ فيها مطبعة ، وأصدر « المقتبس » اليومي ، وهي أول جريدة يومية صدرت في دمشق[١] وهو في الثالثة والثلاثين من عمره تقريباً .

وكانت هذه الجريدة تكتب في الثقافة العامة ، والأدب ، والسياحة ، والشعر ، وتنشر مقالات في وصف المدن السورية ، ورسائل من الغرب . وتجد فيها آثار الأعلام في الشام والعراق ومصر كرفيق العظم ، وعبد القادر

(١) المذكرات ٦١ .

المبارك ، ومعروف الرصافي ، والزهاوي ، وشوقي ، وغيرهم من رجال لبنان والمهجر ، في صفحات أربع واسعة كأنها من جرائد اليوم قوة في التحرير ، ومتانة في التعبير ، وسعة في الأخبار . وهي تنقل عن أختها المقتبس الشهرية وعن غيرها ، أو تعيد بعض مقالاتها للمقتبس الشهري ، وكان يعينه في إدارتها أخوه الأستاذ أحمد كرد علي .

وقد عانت الجريدة كثيراً من جراء الصراحة والحرية ، والنقد[1] ، فقامت السلطة لإيقافها أو تخفيف حدّتها ، فحاولت ذلك باللين حيناً والتهديد أحياناً ، وأقامت الدعاوى المختلفة ، وقد عرفنا أن الأستاذ فارس الخوري كان يرافع عن زميله وصديقه محمد كرد علي ، ورأينا من أخبار هذا الدفاع في جريدة المقتبس .

واشتدت السلطة بعد ذلك ضد الرجل[2] ، فهددته بالاغتيال ، ثم عمدت الى إغلاق جريدته ، وترصد الوالي في القبض عليه .

* * *

في الغرب سنة ١٩٠٩

لذلك هرب الرجل من دمشق ، وبلغ لبنان[3] ، وركب منها البحر الى فرنسا ، وقد بسط تفصيل الرحلة في كتبه ، فكأنها أقرب الى الخيال لشدة ما لاقى من عذاب ، وهول

(١) في خطط الشام ٤٢٢/٦ يقول العلاّمة محمد كرد علي : « كان مذهب المقتبس معاونة الحكومة بالمعقول ، وانتقادها عند الاقتضاء ، وفتح الصدور للمدنية الغربية » - وكذلك المذكرات ٦٣ .

(٢) دخل محمد كرد علي في جمعية الاتحاد والترقي قبل الانقلاب العثماني بنحو اثنتي عشرة سنة ، ثم فهم أن مرامي الاتحاديين تتريك العناصر ، فألف كتلة من العرب والترك سماها : « حزب الحرية والائتلاف » ثم حل الحزب - خطط الشام ٤٢٢/٦ .

(٣) المذكرات ٨٦ - ويتحدث الكاتب أمين الريحاني عن زيارة العلاّمة كرد علي وهربه الى الفريكة في كتابه ملوك العرب ١٠/١ فيقول : « أقام محمد كرد علي عندنا أسبوعاً عددناه من شوارد الزمان » .

ما صادف من تخفّ ، حتى لكأنه ، وهو يروي خبرها ، كان يرى في كل شخص عيناً ، وفي كل زاوية رصداً .

وبلغ باريس - وهو في الرابعة والثلاثين - فزار معالمها التاريخية ومؤسساتها الثقافية ، وخص المجمع العلمي الفرنسي فيها بوصف مسهب قال فيه :

« وحدثتني النفس ببلادنا الشرقيـة ، وقلتُ : هل يكتب لنا المستقبل تأليف مثل هذه المجامع ، فنعمل فرادى ومجتمعين كالغربيين ، أو نظل كما نحن لا نعمل فرادى ولا مجتمعين »[1] .

ونحن نرى في هذه الجملة نواة لتفكيره بإنشاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، فقد صرّح في تقاريره بعد عشر سنوات ، أن المجمع في دمشق وضع على غرار المجمع في باريس . فالرجل كان يرى لبلاده أن تأخذ أحسن ما عند الغرب ، ولعله حين سمى جريدته ومجلته بـ « المقتبس » كان يؤمن بالاقتباس من العرب القدماء والغربيين المحدثين على السواء ، نجمع على صعيد واحد أمجادنا القديمة الموروثة وأمجاد الغربيين المكتسبة .

ورأى في هذه الرحلة مكتبات ومتاحف وكنائس ودور تمثيل ، وعاد من باريس الى الأستانة ودمشق فوصلها سنة ١٩١٠ ، وهو يحمل في صدره صوراً للحرية ، وعلى أطراف قلمه آيات للعمل والسعي ، فأطلق الاتحاديون جواسيسهم وأعوانهم ، يهدّدونه ليكمّ فمه ويسكت عن هذه الثورة الفكرية التي كانت تضطرم في قلبه . ولعله ملّ ذلك كله ، وسئم الصحافة ورأى أن يهجرها الى غيرها من الصناعات وقد جاوز الخامسة والثلاثين من عمره .

* * *

---

(١) غرائب الغرب ١٠٦/١ .

قبيل المهجر سنة ١٩١٣

حدثنا الرجل من قبل أنه حين قصد مصر سنة ١٩٠٦ ، نصحه صديقه جرجي زيدان بأن ينقطع عن السياسة إلى مجلته يعمل للعلم والبحث ، وحدثنا كذلك أنه حين زار مصر سنة ١٩٠٨ نصحه صديقه يعقوب صروف أن يقتصر على المجلة وأن لا يدخل في السياسة . والرجلان على قدر عظيم من العلم والذكاء والبحث والتحقيق ، وقد أدركا أن الأستاذ محمد كرد علي لم يخلق للصحافة اليومية والعمل السياسي ، وإنما هو بالبحث ألزم وبالتحقيق أحق . وكأنما عرفا من خلق الرجل في عصبيته وصراحته وشدة ذكائه ما يجب أن يعدّ لمستقبله وما يتخذ لعمله .

وقد حاول أن يكون صحافياً خلال عشرين عاماً يعيش من قلمه ، في حكومة تحارب القلم ، ويروج بعلمه في سلطة تقتل العلم ، لذلك ضاقت نفسه بحياته : تهديد إثر تهديد ، ورحلة بعد رحلة ، فما يظهر إلا ليختفي ، وقومه في تباغض وتحاسد ، والنوافذ مغلقة على النور ، والحياة أشبه بالسجن . لذلك آلى على نفسه أن يستمع الى هذين الصوتين القديمين ، وأن يعتمد على البحث والتحقيق ، فهو يزحف نحو الأربعين من عمره ، وله أن يكتب في تاريخ بلاده وخططها ومعالمها القديمة والحديثة وأنظمتها وحضارتها .

لذلك فكر في أن يرحل باحثاً لتأليف هذا الكتاب ؛ وقد وضع قبالة عينيه ما صنع الأمير « ليوني كايتاني » مؤلف تاريخ الاسلام الكبير ، ورأى أن يسافر اليه ، فعنده مكتبة منقطعة النظير في الغرب كله ، جمع فيها مصادر الإسلام والعرب من مخطوط ومطبوع ؛ وصوّر لها كلّ ما في العالم من مخطوطة ترشده الى بحثه ، فلماذا لا يشدّ اليها الرحال ، ويصنع كالمستشرقين والغربيين ؟ !

* * *

في الغرب

وعلى هذا سافر من بيروت على باخرة تقلّه الى رومة ، وقد عرجت على الاسكندرية في طريقها ، فنزل في مصر ، ولما وصل رومة ، قصد الى مكتبة البرنس كايتاني وراح ينهل منها ، ويجمع مادة كتابه « خطط الشام » .

وتنقل بعد ذلك من ايطاليا الى سويسرة فالمجر ، ووصف أجمل مافي هذه الربوع في كتابه « غرائب الغرب » وخصّ بها أكثر الجزء الأول ، ثم عاد الى الأستانة ، فجنح الى وطنه[1] ، وآب الى دمشق ، لعله يستريح من سفر ، أو يستجمّ من تعب .

* * *

رحلات الدعاوة

وأين الراحة وأين القرار ؟ وقد دخلت الدولة الحاكمة في الحرب ، واسترخصت أرواح الناس فيها ، وجنّدت المفكرين للدعاوة لها ، وجمعت من الشام طبقة من العلماء والأدباء ورجال الدين وجعلتهم وفداً الى الأستانة ليروا ويصفوا . وكان سفر الوفد أواخر سنة ١٩١٤ ، فخطب أعضاؤه ، ونظموا الشعر خلال الرحلة . فلما عادوا كلّف القائد جمال باشا أربعة منهم بتأليف رسالة عن الرحلة ؛ وهم : محمد كرد علي عن المقتبس ، ومحمد الباقر عن البلاغ ، وحسين الحبال عن أبابيل ، وعبد الباسط الأنسي عن الإقبال . وصدر الكتاب الصغير .

ثم رحل أنور باشا الى الحجاز ، وطلب الى محمد كرد علي أن يؤلف في الرحلة ففعل[2] وهو يقول بعد ذلك في الكتابين إنهما : « من كتب الدعاية السمجة في

---

(١) قبل نشوب الحرب العامة ببضعة أشهر أوقف والي دمشق المقتبس ، وضايقته السلطة حتى أعلنت الحكومة العثمانية النفير العام - انظر خطط الشام ٤١٨/٦ .

(٢) سافر العلامة الى المدينة المنورة وقضى فيها ثلاثة وعشرين يوماً - انظر المذكرات ٨٩ ، وارجع الى زبدة رحلته في المذكرات ٧٨٤ بعنوان : « في مدينة الرسول » ، وقد عدّد فيها المخطوطات ووصفها .

الحرب المقوتة » ، ويقول كذلك : « وأنا غير راضٍ عن أكثر ما فيها وهما كتابان لغيري لا لي » .

وقامت في الشام جريدة « الشرق » وهي كذلك للدعاوة في سبيل تركيا وألمانيا فتولى رئاسة تحريرها مدة[1] ، وكان يكتب فيها نفر من الأدباء والكتاب .

ولعل الرجل ملّ من الحرب ومقالات الدعاوة السياسية ، ففكر في التجارة[2] والسفر الى الأستانة . ولما بلغ عاصمة العثمانيين حال الاتحاديون بينه وبين العمل بإيعاز من أحمد جمال باشا ، وقال : « ومنعوني من معاطاة أعمال لا أعرفها في الحقيقة » ، ولكنه اطلع في استانبول على خزائن دار السلطنة ومخطوطاتها النفيسة .

ولما سقطت دمشق بيد الحلفاء سنة ١٩١٨ ، عاد اليها بعد ثلاثة شهور من سقوطها ، لعله يصدر « المقتبس » ثانية ، لكن الحاكم العسكري أراد أن يصرفه عنها ، فجعله في رئاسة « ديوان المعارف » - وهو في الثالثة والأربعين تقريباً - .

* * *

ديوان المعارف

وهكذا عاد الرجل موظفاً كما كان منذ خمس وعشرين سنة ، على أنه تسلّم منصباً في الثقافة يخدم به معارف أمته ، والمستوى العلمي في بلاده ، ومع ذلك « قبله متكارهاً »[3] كما قال ؛ وقد كان يرأس جملة من الشيوخ تعمل لتنقيح المفردات والنظر في المؤلفات - على حد تعبيره - .

---

(١) في خطط الشام ٤١٩/٦ : « عهدت إليّ برئاسة تحريرها فوليته مدة » .

(٢) في خطط الشام ، بالصفحة نفسها : « وقصدت الى الأستانة للتجارة فمانعني الاتحاديون هناك » .

(٣) خطط الشام ٤٢٠/٦ .

وبذلك طلّق الصحافة ، وفارق هذه المهنة التي ألفها صبيًا ، وأحبّها شابا ، وعمل لها خلال ربع قرن ، يتمرّس بها في أرفع الصحف العربية بدمشق والقاهرة ، وفي أرقى الأوساط الفكرية والأدبيـة ، فقد كانت له مدرسة رفيعة ، وجامعة راقية ، جمعته الى صدور المشارقة والمغاربة ، فأفاد من مجالسهم ، وانتفع بكتاباتهم ، ولكنه رأى آخر الأمر أنها حرفة شاقة ، ورأى أن السياسة متقلبة ، فآثر أن ينصرف الى التأليف والكتابة في المجلات العلمية [1] ، وأن يختم حياته الصحفية ، فقد أصبح صاحب رسالة فكرية سامية ، فيما يرى ، وقد جاوز الأربعين من عمره منذ سنوات .

(١) المذكرات ٦٣ .

الفصل الثالث

في المجمع العلمي العربي

١٩١٨ - ١٩٥٣

في العهد الفيصلي هـذه الرسالة التي كان ينهض لها ويدعو اليها هي رسالة التأليف والتحقيق ، أحبها منذ تعرف الى شيوخه الجزائري والمبارك والبخاري ، وعرف تعلقهم بالقديم ونشره ، وأكبرها حين رأى المصريين ينشرون الكتب العلمية والنصوص القديمة ؛ ثم عشقها حين اختلف إلى مكتبة الأمير كايتاني ومكتبات المستشرقين ، وتعلّق بها حين زار المجمع العلمي الفرنسي بباريس .

ورأى أن تحقيق الكتب لا يكون في المجلات والصحف ، وإنما يجب أن تقوم بها هيئة رسمية ، أو مجمع علمي كمجامع الغرب ، فقد آن أن يعمل العرب للحفاظ على لغتهم ، بعد أن جلا العثمانيون عن سوريا ، وأشرق على البلاد فجر جديد ، وأصبحت الأمة في أعياد الاستقلال ، أمراؤها من العرب وضباطها من العرب ، فيجب أن تكون معارفها عربية ، ودروسها قومية ؛ فلِمَ لا يكون لسوريا مجمع علمي عربيّ ينقح المفردات ، وينشر المؤلفات ، ويرسل المحاضرات ؟ وأبدى الرجل رغبته فوافق الحاكم العسكري في دمشق

رضا باشا الركابي على ذلك ، في ٨ حزيران ١٩١٩ ، وانقلب « ديوان المعارف » برئيسه وأعضائه مجمعاً علمياً مرتبطاً بالحاكم العام مباشرة [١] ، وكان عدد الأعضاء ثمانية [٢] .

وقام المجمع بنصيبه في تقدم العربية ونشر الثقافة ، برئاسة محمد كرد علي ، وانبرى أعضاؤه يحاضرون الجمهور في مختلف الموضوعات ، ويحققون المؤلفات ، ويسهرون على جمع المخطوطات ودراستها ووصفها . وعادت الى العادلية والظاهرية أمجادهما القديمة ، فشهدتا من جديد علماء الشام في القرن العشرين ، يعملون كأجدادهم لإعادة التاريخ الزاهر ، والمجد الغابر ، فما يزال يرن في سمع الزمان ما وقع فيها من أمجاد خلال ستة قرون ، من القرن السابع الى القرن الثالث عشر . ففي العادلية وضع المقدسي تاريخه كتاب الروضتين ، وعمل ابن خلكان تاريخه المشهور ، ونزل ابن خلدون ، ودعا ابن مالك النحوي الى دروسه ومحاضراته .

وهذا الزمان بعيد نفسه ، فقد استيقظت الأمة بعد رقاد ، وهبت بعد الاستعباد ، ونشطت من عقالها لتنشر في العالم دواوين الشعراء وكتب العلماء وآثار النحاة والفقهاء ، وقام المجمع العلمي في جد ونشاط خلال ثلاثين عاماً ما فتر ولا وهن يطبع النفائس ويجلو عرائس الفكر .

ومرت بالبلاد ثورات وسقطت وزارات ، وقامت حكومات مختلفة ، والمجمع قائم لا يتأثر إلا باللغة ، ولا يعمل إلا للثقافة يحاضر ويحقق وينشر ، ولسانه

(١) المذكرات ٢٧٧ .

(٢) لن نفيض في وصف المجمع العلمي هنا ، وانما نحيل القارئ المستزيد الى رسالة بالفرنسية ، ألفناها في المجمع وآثاره ومقالاته وكتبه ، يحسن الرجوع اليها ، وهي بالاشتراك مع المستشرق الأستاذ هانري لاووست عضو المجمع العلمي بدمشق ، ونشرت سنة ١٩٥١ .

مجلة راقية تحمل الخير والنور ، منذ ثلاثين عاماً حتى اليوم [١] ، وقد ماتت صحف أدبية ، وقضت منتديات خطابية ، وحلَّت جمعيات ثقافيـة ، والمجمع ما يزال يبعث الإيمان بالماضي القديم ويرسل الإشعاع للمستقبل القريب .

واذا كنا بسطنا القول في المجمع ، فذلك لأننا نرى فيه جهد الأستاذ الرئيس محمد كرد علي ونشاطه ، فقد كان واسطة العقد وموضع الحركة [٢] ، يراسل المستشرقين ويكاتب المصريين ، في سبيل المجمع ، فكأنه قطعة من حياته ، أو كأن حياته قطعة من المجمع ، يدوّي صوته فيه كلّ صباح ، وتنعقد حوله الحلقات ، وتتصل فيها الأحاديث والنكات ، وتبرم فيها المشاريع والقرارات .

وان نسترسل فيما وقع للرئيس خلال هذه السنين ، فقد حدّثنا عن ذلك في مرارة وأسى ، حين رأى منافسين ومبغضين وحساداً ، من الأفراد والهيئات ، فتجهم له الزمان حيناً وهشّ له أحياناً ، ولقد قال في مذكراته : « لقيت الأ لاقي من الحكومات السورية في هذا المجمع العلمي كأنه كان بعض ملكي » [٣] .

* * *

في الوزارة

وقد اختير مرتين للوزارة ؛ أولاهما في ٧ ايلول ١٩٢٠ ، فزار خلالها أوربا للمرة الثالثة ، وطاف بلجيكا وهولاندة وانكلترة واسبانيا وألمانيا وسويسرا . وثانيتهما في ١٥ شباط ١٩٢٨ [٤] ، فسافر خلالها كذلك الى أوربا للمرة الرابعة وطاف انكلترة وفرنسا وبلجيكا ، وقد

(١) حللنا أهم المقالات التي جاءت في المجلة ، في رسالتنا السابقة بالفرنسية .
(٢) بدأ المجمع بثمانية أعضاء ، وهم اليوم يبلغون التسعين : اعضاء عاملين ومراسلين .
(٣) المذكرات ٢٨٤ .
(٤) يقول في مذكراته ١٠١٥ : إن الكتلة الوطنية أبعدته فيما بعد عدة سنين عن منصبه لأنه قبل بدخول وزارة الحسني ، وقد عاد الى رئاسة المجمع سنة ١٩٤١ .

أربى على الخمسين يسافر بين العواصم ، ويتصل بالمستشرقين والعلماء ويزور المكتبات والمتاحف ، ويفيض في المحاضرات والمؤتمرات [١] .

وخلال هاتين الوزارتين أرضى أناساً وأغضب آخرين على عادة الحكم في ربوعنا ، فزاد في خصومه ، وهو يرى في الوزارة آنذاك رأياً يثبته في مذكراته ننقل بعضه : « وزارتنا وزارة متواضعة ليس لها من الروعة في الحقيقة ما لوظيفة مأمور المركز » [٢] في مصر .

وقد قام الرجل سنة ١٩٢٤ ، وهو في الخمسين من عمره تقريباً ، بتدريس الأدب العربي ، واللغة العربية نحوها وصرفها في معهد الحقوق بدمشق ، ولكنه انصرف عن التدريس لما وقع من دسائس ضدّه . وأنشأ خلال وزارته مدرسة الآداب العليا ، وهيأ الأسباب لافتتاح كلية الإلهيات ، فدلَّ على فهم ، وسعة أفق ، وعظيم اهتمام بالجيل الصاعد .

وكان الأستاذ الرئيس [٣] حين يستريح من سفر أو ينصرف من الوزارة ، يقبل على كتبه وصحفه ، يحقق آثار السلف الصالح وينشرها ، أو يجمع منها تاريخاً لبلاده ، أو جغرافية لبعض أقاليمها ، أو يصحّح ما يُرسل الى المجلة ، أو ينظر فيما يقدّم الى المجمع من كتب ، وما يُهدى اليه من مطبوعات ، لا يقف ولا يتوانى ، حتى أثقل كاهله الجدّ والتأليف ، وأسقم عينيه تقلب المداد ، وكلّ قلبه من الآثار والأسفار ، فقد أشرف على قمة من الكتب أخرجها للناس ، ومحاضرات جلاها للناشئين ، ومقالات دبجها في المجلة .

(١) سافر العلاّمة الى مصر سنة ١٩٢٨ ، وقد انتدبه المجمع ليمثله في حفلة تكريم احمد شوقي بمصر – المذكرات ٢٩٧ .

(٢) المذكرات ٤٥٤ .

(٣) كان احب الألقاب اليه لقب الأستاذ الرئيس ، انظر المذكرات ص ٧

وقد انتخبه المجمع اللغوي بمصر عضواً فيه ، فكان يسافر خريف كل عام ، يناقش ويحاضر ، ويزور ، ويكتب ويؤلف ، حتى منعه أطباؤه من السفر ، فحيل بينه وبين إخوانه في مصر أحبهم وأكبرهم ، رغم سعي السعاة ووشاية الواشين ، وزاد في ذلك قعوده عنهم وبعده منهم ، فتألم وتحسر ، وذكر مرتع صباه ومصنع عبقريته وجهده ، في حنين موجع وأسى بالغ .

وكان قلبه خلال السنوات العشر الأخيرة ـ وهو يزحف الى السبعين ـ يتأثر بالعلة ، ويأبى أن يتحمَّل فوق ما حمل ، يريد أن يقف ويريد له صاحبه أن يسير في الطريق ليعمل في الثقافة والتأليف ونشر كتبه المخطوطة وإعادة ما طبعه منقحاً مزيداً فيه ، ولكن القلب أبى أن يستمهل ، فوقفت نبضاته يوم الخميس في ٢ نيسان ١٩٥٣ وهو في السابعة والسبعين .

وشيعته البلاد ، وبكاه الكتاب والنقاد ، وأبَّنه على قبره الأديب القانوني معالي الدكتور منير العجلاني باسم المجمع العلمي العربي فقال : « إن ثمة امارتين في العالم العربي : امارة الشعر وكانت معقودة اللواء للمرحوم احمد شوقي ، وامارة العلم وكانت معقودة لفقيدنا العلامة محمد كرد علي » ، ثم قال : « إن الفقيد كان رائداً وقائداً ومعلماً ومرشداً ، وله أوليات خالدة ، فهو أول من أنشأ مجلة أو جريدة في الشام ، وهو أول من أنشأ المجامع العلمية » .

ودفن الفقيد الغالي في مقبرة الباب الصغير بجوار قبر معاوية بن أبي سفيان في دمشق التي أحبَّها وعمل لها ، ورفع منارتها عالياً ، وسيَّر ذكرها بين الناس في القرن العشرين .

وافتقده المجمع العلمي العربي بدمشق ، وقد ربَّاه الرئيس الراحل جنيناً ، ورعاه خمسة وثلاثين عاماً ، لم ينقطع عنه إلاّ لماماً ، فقد كان بيته وكان كعبته .

آثاره ومؤلّفاته

« وربما كانت شهرة الكتب بعد مؤلفها أكثر
« من شهرتها في حياته . وبعد ذهاب المؤلف
« من الأرض يقدّر بقيمته الحقيقيـة »

محمد كرد علي في « المذكرات »

الفصل الرابع

ثقافته وأسلوبه

كلف محمد كرد علي منذ صباه بمطالعة الصحف ، وتعلق باللغة الفرنسية في شبابه ، فنظر في الكتب الغربية ، ثم أخذ عن شيوخه فقرأ الكتب القديمة ، وقد بسطنا ذلك من قبل . ولكننا لم نتقص خبر هذه الكتب التي قرأها لنقف على مبلغ دراسته ومدى ثقافته ، فليست الدراسة في عدد السنين على مقاعد الدرس ، وليست الثقافة في صورة الشهادة ورنين اللقب ، وإنما هي في قراءة الكتب الأمهات التي تكوّن العقل ، وفي مبلغ هضمها واستساغتها والافادة منها .

والأستاذ الراحل وصف لنا ثقافته وعدّد لنا قراءاته فكفانا مؤونة الحدس ، قال : «وأهم ما أولعتُ بمطالعته ـ بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي ، وجانب من المخطوط الذي عثرتُ عليه ـ كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع وأحوال الشعوب ومدنياتهم . وطالعتُ بالافرنسية أهم ما كتبه ڤولتير ، وروسو ، ومونتسكيو ، وبنتام ، وسبنسر ، وفوليه ، وتين ، ورنان ، وسيمون ، ... وتدارستُ المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية . وجريتُ منذ نشأتُ على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما

أكتب ، وقلما دوّنتُ موضوعا لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي »[١] .

ذلك ما قرأ من كتب الغرب ، نقلنا بعضه كأنموذج على سبيل المثال لا الحصر والاستقصاء ، ومنه ندرك سعة أفقه ، ومسرح خياله ، فهو قد أطل على الفلسفة الغربية وعلم الاجتماع من خلال الكتب الفرنسية ، وزادته الرحلة الى الغرب فهماً واطلاعاً .

أما الكتب العربية التي قرأ فيها ، فقد ذكر جانباً منها قال : « وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره ، أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ، ورسائل الخوارزمي والصابي ، وتاريخ اليميني للعتبي ، والزمخشري والأصفهاني ... ولما كتب لي الاطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية أنشأت أبحث عن كتب كتبت بلا تكلف وتعمل ، ككتابات الجاحظ وابن المقفع ، وعبد الحميد الكاتب ، وسهل بن هرون ، وأبي حيان التوحيدي »[٢] .

ثم أفاض في ذلك فرسم لنا قراءاته ، يريد أن يدلنا على الطريق التي سلك والكتب التي تأثر بها أسلوبه وكتابته ، قال :

« إني أتلو القرآن بتدبر ، قرأتُه على أساليب مختلفة لتفهمه وتمثل بلاغته ، وإني طالعتُ طرفاً صالحاً من كتب الحديث كالبخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنة ، وحفظت المعلّقات السبع وطرفاً صالحاً من دواوين العرب ، وحفظت نحو نصف ديوان المتنبي ، وعدّة قصائد لعمر بن أبي ربيعة ، والبحتري ، وأبي تمام ، والرضيّ ، وابن الرومي ، والطغرائي ، والأرجاني ، والمعرّي ، وعلي بن عبد العزيز ، وغيرهم من الشعراء المحدثين والمخضرمين .

« وتدارست الكامل للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والتاريخ اليميني

(١) خطط الشام ٤١٣/٦ .
(٢) مجلة المقتبس ، المجلد الرابع ، سنة ١٩٠٩ ص ٥١٠ .

للمتنبي ، والمثل السائر لابن الأثير ، واستظهرتُ أشياء كادت تفسد عليّ ملكتي مثـل مقامات الحريري ، ورسائل الهمذاني ومقاماته ، ورسائل الخوارزمي ، وبديعية النابلسي .

« وما أخرجني من تـكلُّف النسج على منوال المتأخرين كالقاضي الفاضل ، والصابي ، وابن الأثير ، إلاّ الولوع بعد حين برسائل عبد الحميد الكاتب وابن المقفع والجاحظ والتوحيدي . أما ما وصل إليّ مما كتبوه و كتبه أمثالهم من السهل الممتنع ، فقد قرأته مرات ، ولا أزال أقرؤه »(١) .

هذا ما سجله الرجل في كتاب صدر قبيل وفاته ، جمل فيـه زبدة قراءاته وخلاصة أدبه ، ليشير في وضوح الى عزوفه عن الأسلوب المنمق و كتابة السجع ، وتعلقه بالسهل الممتنع ، وهو يقول في محل آخر : « وعمدتُ الى الكتابة المرسلة بدون تكلُّف الأسجاع والازدواج »(٢) .

وقد روينا أمثلة كثيرة من أسلوبه خلال حديثنا عنه ، نستشف منها الرقـّة في الأسلوب من غير تفخيم ، والسهولة في التعبير من غير تكلف ، فهو يتحدث حديث الراوي والقاصّ ، ويكتب كتابة المترسّل المحدث ، فلا يزاوج بين الجمل ولا يتكلف الكناية والاستعارة والجناس والسجع ، وإنما يرسل نفسه على سجيتها ، يكتب في جمل تطول حيناً وتقصر حيناً ، تُعنى بالمعنى أكثر من اعتدادها بالمبنى حتى لتشبه الأحاديث المبسوطة والرسائل المكتوبة .

وقد يشتط الخيال وتجمح الذكرى ويفيض الشعور ، فينشئ في جمل مقتضبة وعبارات متراصة ، وذلك حين يذكر الشباب ، أو يرسم الشيخوخة ، أو يأسى للعمر ، أو يصف الغوطة .

(١) المذكرات ١١٩٣/٤ ، سنة ١٩٥١ .
(٢) المذكرات ٣٠٧ .

والأستاذ الرئيس قد يتخير اللفظ ويسعى له وذلك حين يكتب في تحليل الأدب فحسب ، فيؤثر بعضه على بعض . وأقرب الألفاظ الى نفسه ما وقع في كتب القدماء ، أو ما سهل على الأذن ورق على السمع ، يريده لنفسه ، ويطلبه لزملائه . وما أذكر أنه قرأ مقالة للمجلة أو بحثاً للنشر إلا أعمل قلمه في إصلاح بعض المفردات والتراكيب مما لا يروقه أو لا يستحسنه . وقد يزيد في التهذيب حتى يحذف المديح الفائض ، لا يخاف ولا يتردد ، ولا يحسب للكاتب في ذلك حساباً مهما علت مكانته وسمت مرتبته ، فهو نقّاد جريء لا يخاف في اللغة لومة لائم .

وتغلب على مقالة الرئيس ومحاضراته فكرة الاستقصاء ، فيسترسل في ذكر المصادر والكتب والمؤلفين ، فكأنه يستوعب في فكره كل شيء ، أو كأنه يريد أن يذكر كلَّ ما يعلم ، فيتدفق بفيض غزير وعلم كثير ، بعرض خلاصة ما رأى وما قرأ وما سمع .

وقد نُشرت في مصر كتبٌ اختارت من أسلوبه ، وجعلته بين « مشهوري أدباء الشرق » ، وقرنته في صعيد واحد الى العقاد ، وطه حسين ، ومطران ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الأفغاني ، والمنفلوطي ، والرافعي ، وولي الدين يكن ، وقاسم أمين [1] ... وروت من نثره ونثرهم ، فهو وحده بين جمهرة المصريين يمثل الشام ، وهو وحده رفع لواءنا في دولة الأدب .

* * *

---

(١) انظر « أشهر مشاهير أدباء الشرق » ، وضعه محمد عبد الفتاح ، ونشره في مصر ، بغير تاريخ ، على جزءين اثنين - وانظر كذلك في « الأدباء الخمس » جمعه اسماعيل عبد الحميد ، ونشره في مصر ١٩٢٥ .

كتبه ودراساته

بهذا الأسلوب أنشأ الأستاذ الرئيس كتبه ، وقد درج مع الزمن فسار صعداً ، واتبع سنة التطور . ونحن نستطيع أن نقسم آثاره الى أربعة أقسام :

أ — كتب مترجمة ومعربة .

ب — أدب المقالة .

ج — دراسات تاريخية وأدبية .

د — تحقيق الكتب .

أ — كتب مترجمة ومعربة :

كلف الشاب بالعربية والفرنسية معاً - كما قلنا - وبدأ أول الأمر بترجم روايات برمتها عن الفرنسية ، فنشر « قبعة اليهودي ليفمان » سنة ١٨٩٤ ، نثر بعضها وأعانه في صنع قسم منها أستاذه السيد محمد المبارك وسماها « يتيمة الزمان » ، وقد تناولها بعض النقاد بكلام جارح ، نشره في الصحف .

ثم ترجم في مصر « الفضيلة والرذيلة » تأليف (جورج أونيه) الفرنسي المعاصر ، ورواية « المجرم البريء » وذلك في سنة ١٩٠٧ ؛ وعرّب تاريخ الحضارة لشارل سنيوبوس بمصر سنة ١٩٠٨ .

وهذه الكتب تعدُّ في عبث الشباب ، تمرّن بها على طريقة الترجمة ليفيد من اللغتين ويزيد من ثروة مفرداتها ، وقد كان المترجم لا يعتد بها ، فقال في أحدها : « ياليتني نبذتُ رواية يتيمة الزمان في زنبيل سقط المتاع » .

وقد عرَّب كتباً أخرى في الحرية لجول سيمون ، ونشر فصولاً منه في المؤيد بمصر ، وترجم الأسماء التركية لرضا باشا ثم طواه .

ولولا أمانتنا في إيراد كلّ ما كان لحياته لأهملنا ما وقع من قلمه في الترجمة ، فهو نفسه يقول : « وليس لي يد في القصص التي نشرتها أول أمري لأنها مترجمة »(١) .



ب — أدب المقالة :

نشر كاتبنا مقالاته في الصحف اليومية والأسبوعية ، بمصر والشام ، وأرسل محاضراته في مصر وسوريا والأستانة ، ثم جمع بعض ذلك (٢) في كتبه ، كما فعل الكتاب المصريون المحدثون كالعقاد والمازني والزيات والرافعي وأحمد أمين ومحمد حسين هيكل ، وهو في هذا لا يختلف عنهم ولا يختلفون عنه ، فقد نبغ فيهم وعاش معهم ، وفعل مثلهم .

وقد جعل كتبه على الموضوعات ، في الرحلة أو الاجتماع ، أو حياته الخاصة ، وطبعها بالعناوين التالية :

١ — غرائب الغرب (٣) (١٩٢٣) جمع فيه وصف رحلاته الثلاث الى أوربا ، وهو طريف في أسلوبه ، يجمع المشاهدة والعيان الى النقول والمصادر والوثائق . فهو يصوّر فيها ما رأى وما سمع وما قرأ ، في إنشاء جميل يحوي الأدب والاجتماع

(١) المذكرات ١٠٤٦ .
(٢) ما تزال بعض مقالاته ومحاضراته مخطوطة لم تطبع ، وكان ينتظر أن يمدّ في اجله ليطبعها بنفسه ، فكان يعلن عنها في ختام كتبه ، وهي : « المقالات ، المحاضرات ، الكناش » وأعلن عن بعضها الآخر في خطط الشام ٤٢٤/٦ وهي : « حرية الوجدان ، الحرية المدنية ، الحرية السياسية معربة عن جول سيمون » .
(٣) جزءان في ٦٤٠ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٢٣ .

والتاريخ والاقتصاد ؛ ويشمل في أوصافه القصور والمؤسسات والجامع والمتاجر ، والأخلاق والتقاليد ؛ ويوازن أبداً بين الغرب والشرق ، يتمنى لقومه خير ما يرى عند الغربيين .

٢ — القديم والحديث[١] (١٩٢٥) : وفي هذا الكتاب مقالاته التي نشرها في المقتطف والمقتبس والمؤيد والظاهر ، يجمع بينها حديثه عن العادات والآداب والتقاليد ، ينهل من مصادرنا القديمة وينقل عن الكتب الغربية وصحف أوربا . وقد كان الأستاذ الرئيس يرضى عن هذا الكتاب .

٣ — أقوالنا وافعالنا[٢] (١٩٤٦) : وصف فيه الأخلاق والعادات التي تعيش بيننا ، وانتقد أخطاءنا وأعرب عن سوءات عيوبنا ، ورسم لنا سبل الإصلاح . ووازن بين حاضرنا وحاضر الغرب ، فهو صورة للشرق العربي في صدر القرن العشرين ، كتبه على شكل بحوث قصيرة ومقالات ، تنم عن خبرة وتجربة وسعة قراءة وعظيم اطلاع . ويبدو أنه فكر فيه قبل عشرين عاماً تقريباً ، فأراد له عنواناً : «أخلاق المعاصرين»[٣] .

٤ — المذكرات[٤] (١٩٤٨ — ١٩٥١) : راج أسلوب المذكرات في العصر الحاضر على غرار الآداب الغربية ، مما كتبه روسو وغيره ، فأصدر الدكتور طه حسين «الأيام» ، والمازني رسم حياته في كثير من فصول كتبه ، وأنشأ أحمد أمين وغيره في تقليد هذا الطراز . أما الأستاذ كرد علي فقد عاش في بيئات مختلفة ، ورأى دولاً عدة وأقطاراً متباينة ، فرسم حياته وما وقع له خلال هذه الحياة في الشرق والغرب على شكل مقالات ، لا يربط بينها إلا

(١) جزء واحد في ٣٤٦ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٢٥ .
(٢) جزء واحد في ٤٢٧ صفحة ، نشر بمصر سنة ١٩٤٦ .
(٣) انظر خطط الشام ٤٢٤/٦ .
(٤) اربعة اجزاء في ١٣٢٠ صفحة ، نشر بدمشق سنة ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

أنها من ذاكرته . وقد تحدّث فيها عن أسفاره ووزارته ، وهجرته من الشام وموقف الحكومات التركية والفرنسية والانكليزية وعملائها منه ، وما صنعه في سبيل بلاده ، وما يؤخذ عليه من أخطاء .

والكتاب صريح جريء يصف ما للرجل وما عليه . وهو شبيه بمذكرات الغربيين لولا أنه غير مرتب على التاريخ وليس مبوباً على الموضوعات ، فكأنه مجموعة أفكار تعرض له فيمليها ويرسلها الى المطبعة . وقد فضح الكتاب أسماء كثيرة ، ومدح شخصيات عجيبة ، وغلبت عليه العاطفة ، فقد بدأ بتدوين هذه المذكرات حوالي سنة ١٩٣٨ ، وسنه قد زادت على الستين ، وذاكرته ما تزال قوية تسجل دقائق الأشياء ومنسيّ الألوان ، وشتيت التفاصيل والملاحظات .

وقد انقسم الناس في هذه المذكرات الى محبذ ومستنكر ، لغلبة الهجوم فيها على بعض السياسيين والحزبيين من رؤساء ومرؤوسين ، ولكنها تنفع المؤرخ وتفيد الباحث ، فتفصّل ما أهمل تاريخه الكبير ، وتتوسع في تصوير العصر ، فكأنها تتمة لخطط الشام ، وتاريخ لصدر القرن العشرين على أسلوب المذكرات . أما الهجاء فيذهب مع الريح ، وتبقى الصور الحقة في أمور الدولة العثمانية وأسرار الانتداب ومزايا الاستقلال ، وفي موقفه من هذه العهود جميعاً ، وقد لخص ذلك بقوله : « ولا أمثل لما يدعوني الى معاناة ما أعاني إلا بمسألتين ، صرفت فيهما جانباً من اهتمامي منذ وعيتُ على نفسي ، وهما الاستثمار التركي ببلاد العرب ، والاستعمار الافرنسي في بلاد الإسلام » .

وظل يكتب في المذكرات حتى أواخر أيامه ، ووعد أنه لا ينثني عنها قائلاً : « ما دمت أتمكّن من مسك القلم ، وأصبر على التحديق في الخطوط التي أخطها » . وكان وفياً للوعد ما وفت له الأيام ، وكان على أن يظهر الجزء الخامس أو السادس بعده لو عاش لهما ، ولكن العمر قصير والزمان غادر ، فسكت

لسانه عن إكمال ما بدأ به ، ووقف بيانه عن كشف سائر المؤامرات التي حيكت ضدّه خلال حياته .

٥ – البعثة العلمية الى دار الخلافة الإسلامية (١٩١٦)[١] .

٦ – الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية (١٩١٦)[٢] .

وهذان الكتابان صورة من صور الدعاوة للدولة الحاكمة ، كتب فيهما الأستاذ كرد علي مقالات تمليها المناسبات الحربية ، لا ترتفع الى مستوى أدبه ، ويبدو عليها طابع خاص يرى فيه هو نفسه : « دعاية سمجة » فهذان الكتابان لا يقعان من مؤلفاته موقع الحب والاصالة .

***

م – دراسات تاريخية وأدبية :

أنشأ الأستاذ كتباً في الأدب والتاريخ ، تعدُّ مصدراً للشادين في مطلع القرن العشرين ولا تزال وحدها دلالةً على إنتاجنا في هذا الباب :–

٧ – خطط الشام (١٩٢٥) : أراد المؤلف أن يكتب تاريخاً سياسياً ومدنياً مطولاً للديار الشامية على عادة المستشرقين والعلماء الغربيين ، فسافر إلى خزانة الأمير كايتاني بروما ، ولبث فيها يبحث خلال شهر كامل مدة ثلاث ساعات في الصباح ، يتزود من مصادرها حتى كانت له مادة واسعة . وسافر بعدها الى ربوع الغرب يطوف مكتباتها لاستكمال بحثه ودرسه ، حتى أنفق في ذلك قرابة ألف وخمسمائة ليرة عثمانية ذهباً ، وعمل له خمساً وعشرين سنة ، طالع خلالها

(١) تأليف : محمد الباقر ، ومحمد كرد علي ، وحسين الحبّال ، وعبد الباسط الأنسي ، بيروت ١٩١٦ في ٢٩٦ صفحة .

(٢) طبع في بيروت سنة ١٩١٦ في ٣٠٢ صفحة .

زهاء ألف ومائتي مجلد [١] باللغات العربية والتركية والفرنسية . وقد أخرجه في في ستة أجزاء واسعة .

وقد بحث في هذا الكتاب تاريخ الشام . ونظمه الاسلامية ، والحضارة القائمة فيه على مرّ الأزمان ، والدول التي تعاقبت على الأرض ، والحالة الأدبية والاقتصادية خلال هذه الحقب . ولما انتهى منه تنادت لجنة من فضلاء الشام [٢] فجمعت لطبعه ألف ليرة عثمانية ، ونشرت منه ألفي نسخة . وقد كان وحده مصدر التاريخ في بلادنا ، فهو يحوي ما تفرق من المصادر والكتب ، ينقل عنها أحياناً نصوصاً كاملة ، وأحياناً يختصر منها ، فكأنه جمع المؤرخين على صعيد واحد . وقد كلّف زملاءه بالكتابة عن خطط مدنهم ، وسجل لهم يدهم في ذلك فأشركهم في عمله . وما يستطيع أن يقوم فرد وحده لهذا العبء ويكتب له النجاح ، لذلك رأى النقاد أنه لم يسجّل في ذيول الصفحات [٣] مصادر أقواله وأحكامه ، يعيّن الكتاب والصفحة وسنة الطبع ، كما يفعل الغربيون ليومنا هذا ، وأغفل الفهارس والمصادر [٤] .

وفي صدر الكتاب ، وضع الرجل قائمة كبيرة لكتب عربية مخطوطة

(١) نقلنا هذا الاحصاء عن كتابه خطط الشام بقلمه . وقد بلغت الخطط ١٩٤٠ صفحة.

(٢) هذه اللجنة كانت تسمي نفسها لجنة طبع الخطط : « بدر الداغستاني، خليل مردم بك، سامي العظم ، فخري البارودي ، فوزي الغزّي ، لطفي الحفار » ، وقد فتحت باب الاشتراك منذ اول ايلول ١٩٢٥ ، وكانت المفاوضة مع السيد لطفي الحفار بدمشق.

(٣) وعدت اللجنة بأن تشرع في طبع معجم خطط الشام ، وهو يدخل في ثلاثة او اربعة مجلدات مشفوعاً بالصورات ، ولكنه لم يظهر .

(٤) قرأنا في الكلمة التي ألقاها الأمير مصطفى الشهابي لحفل استقباله عضواً عاملاً بمجمع اللغة العربية في مصر ، إشارة الى هذا الكتاب يقول فيها عن الأستاذ الرئيس : « وقد ذكر لي مرة أنه لم يبق له في الحياة إلاّ أمنية واحدة وهي أن يتاح له طبع هذا الكتاب طبعة ثانية منقحة » .

ومطبوعة ، الى قائمة كبيرة بالكتب الغربية وصحف الاستشراق ، تدل على جهد وعناية ودقة ؛ وتصور نشاط الرجل وسعيه خلال ثلاثين عاماً أنفقها من عمره لخطط بلاده .

وفي سنة ١٩٤٤ ، اختصر الرجل جزءاً من كتابه ، وجعله في عبارة موجزة ، وأسلوب حديث ، وعنون له : « دمشق مدينة السحر والشعر » ونشرته دار المعارف في مصر ، لسلسلة « اقرأ » [١] .

٨ — الاسلام والحضارة العربية (١٩٣٤) [٢] : سافر الأستاذ الرئيس الى أكسفورد سنة ١٩٢٨ ، ليمثل المجمع العلمي بدمشق في مؤتمر المستشرقين ، وعاد منه بآراء ومقالات عن المستشرقين ونظرتهم الى الدين الاسلامي .

ثم دُعي ثانية الى مؤتمر المستشرقين بليدن (هولندا) سنة ١٩٣١ ، وفكر في موضوع يلقيه بالمؤتمر ، فكان أن اقترح أحد الأعضاء بدمشق أن يردّ على أكاذيب بعض المستشرقين ، ودسائس المغرضين ضدّ الدين الاسلامي [٣] . فتعهد الرجل بذلك ، وراح يهيئ دراسته وردّه ، وطال الأمر ، وقعد الأستاذ عن السفر الى المؤتمر لعذر طارئ ، ولكنه ظل يكتب في الموضوع ، ويفصّل الأمر فيه ولبث على ذلك ثلاث سنين ، يعمل كل يوم ثماني ساعات حتى انتهى منه . فكان في الحاماة عن الاسلام والذود عن حياضه ، وأصبح معلمة طيبة في التعريف به والدعاوة له ، وبيان أغراضه وأهدافه ، وفضله على المدنية الحاضرة ، وأفضليته على غيره في نظم الحياة ، يبحث في ادارة المسلمين وحياتهم وأساليب عيشهم ، ويعتمد في ذلك على نصوص رآها ، وقراءات كانت له .

---

(١) اقرأ ، في ١٥٢ صفحة ، نيسان ١٩٤٤ .

(٢) في جزءين ٣٦٣ + ٥٧٨ صفحة ، مصر ١٩٣٤ - ١٩٣٦ .

(٣) كان حلم المرحوم كرد علي أن تنشأ مجلة تعنى باللغة الفرنسية والانكليزية لبيان حقائق الإسلام — انظر المذكرات ٣٨٩ .

واذا كان للمعرّي أن يتأخر وأن يصف جنته (في رسالة الغفران) ، لجعل الأستاذ الرئيس فيها ليده في هذا الميدان ، وقد غفر له ربه ، ما تقدم من ذنبه وما تأخر بفضل هذه الصفحات المشرقة ، التي تعدُّ من أوسع المراجع في الحضارة الاسلامية لكاتب مسلم متبحر مخلص .

وقد سُلخت من الكتاب عدة محاضرات نشرت في مصر بعنوان : « الإدارة الاسلامية في عز العرب » ، طبعت بنفقة السيدة قوت القلوب الدمرداشية .

٩ — أمراء البيان (١٩٣٧)[1] : كان المؤلف يكتب في صدر شبابه بمجلة المقتبس مقالات في الأعلام عنوانها : « صدور المشارقة والمغاربة » ، ثم رأى أن يتوسع في أعلام الأدب العربيّ ، بعد أن وقع على كتبهم ، وطبع رسائلهم ، فأرسل دراسة واسعة عن عشرة منهم : عبد الحميد الكاتب ، عبد الله ابن المقفع ، سهل بن هرون ، عمرو بن مسعدة ، ابرهيم الصولي ، أحمد بن يوسف الكاتب ، محمد عبد الملك الزيات ، الجاحظ ، التوحيدي ، ابن العميد .

وقد جاء كتابه هذا في أسلوب مشرق وعبارة بليغة ، ومنهج واضح ، فبلغ بدراسته لهؤلاء الأدباء مكاناً رفيعاً ، جعل الكتاب محل القصد في الجامعات ، وخاصة بمصر . وما يزال الى اليوم أوسع ما كتب عن هؤلاء الأعلام باللغة العربية .

١٠ – كنوز الأجداد (١٩٥٠)[2] : وهذا الكتاب في الأعلام كذلك ، ولكنه لم يقف عند المترسلين والشعراء ، وإنما تجاوزهم الى كثير ممن خدم الثقافة الاسلامية ، ففصّل فيهم القول كما وسعه ، وتحدّث عمن طالت عشرته لهم واغترافه من معين أسفارهم بين رجال الاسلام . فكتب في الأشعري ، والأصبهاني ، والبلويّ ، والتنوخي ، والبيروني ، والماوردي ، والجرجاني ،

(١) نشر في ٥٧٨ صفحة ، بمصر سنة ١٩٣٧ ، ولعله فكر في جمعه قبل سنة ١٩٢٥ فجعل اسمه في خطط الشام ٦/٤٢٤ : « امراء الانشاء » .

(٢) نُشر في ٤٣٦ صفحة ، بمصر سنة ١٩٥٠ .

والغزالي ، والحريري وغيرهم ... وهم يزيدون عدداً على الخمسين ، ترجم لكل منهم في صفحات ، فجعله نواة الكتاب في تاريخ الأدب العربي ، على مفهوم بيّن غربيّ ، وفي مقياس واسع ، وقد رتبهم على الوفيات .

وقد قدَّم بين هذه التراجم ترجمةً مطوَّلة لأستاذه [1] الشيخ طاهر الجزائري ، وقد عرفه منذ صغره - كما رأينا - ، وأكبره منذ نشأته ، وسار على خطاه ، وانتفع بعلمه ، فوفاه حقه ، وأدى نحوه دَينه ، وجعله في الأجداد الذين خدموا تراث الإسلام وكانوا في الأعلام ، لكن الزمن بعيد بينه وبينهم ، فتوّج به صفحات الكتاب ، وافتتح التراجم به .

١١ - غوطة دمشق (١٩٤٩) [2] : أحبَّ المؤلف الغوطة حباً جمّاً خالط لحمه ودمه ، فقد ورث فيها قطعة من أرض «جسرين» عن أبيه - كما قلنا - سكن الى ظلها ، وارتوى بمائها ، وعاش مع أبنائها ، واختلط برجالها ، فكأنها بلده وحكومته ومجمعه ، فيها مجالس شوراه ، وبها أسماره ونوادره ؛ ألِفها حتى حسب نفسه فلاحاً من فلاّحيها [3] ، وشاطر أهلها عواطفهم في فرح وحزن ، فقال : «حزنتُ على الغوطي عبداً ، وفرحت له حرّاً ، آلمني عبوسه وتشاؤمه ، وسرّني ضحكه واستبشاره» [4] .

عاش في الغوطة قرابة ستين سنة حتى أصبحت «أحب بقعة الى قلبه في الأرض» [5] ، فدرس أخلاقها ، وعاداتها ، ومدنيتها ، وخبر كلامها ، ووقف على الفصيح والدخيل ، والحديث والقديم من تاريخها ، فسجّل ما سكت التاريخ

(١) لعل الأستاذ الرئيس جعل هذه الترجمة في جملة ما كان يعتزم نشره عن المحدثين لعصره كاليازجي ومحمد عبده وتيمور باشا ، لكن الأجل لم يفسح له في تحقيقه وهذا الكتاب سيكون عنوانه : «مكتشفات الأحفاد» - انظر خطط الشام ٤٢٤/٦ وتراجم المعاصرين في مجلة المجمع العلمي ظل ينشر منها حتى قبيل وفاته .

(٢) طبع الكتاب اول مرة سنة ١٩٤٩ ، ثم أعيد سنة ١٩٥٢ بدمشق على تنقيح وزيادة .

(٣) المذكرات ٧٤٩ .

(٤) الغوطة ٢٥١ ، إقرأ ١٥١ .

(٥) مجلة المقتبس ٤٦٥/٤ .

عنه ، وأرّخ للغوطة على منهاج لطيف ، سيكون في تواريخ القرى الحافلة ، يبذُّ تاريخ داريا والمزة وغيرهما . وقد كتبه في عاطفة المحب ، وشوق الودود ، وإخلاص الشاعر الوفيّ ، والأديب البليغ ؛ فكسا الغوطة ثوباً من حياة ، وردّ اليها الجميل ، لما قدّمت من خير الى دمشق ، فقد أحالتها من صحراء قاحلة الى واحة ساحرة .



د — تحقيق الكتب :

فتحت مجلة المقتبس صدرها منذ السنة الأولى لتحقيق الكتب القديمة عن مخطوطاتنا المخبوءة ، بعنوان « صحف منسية » فنشرت كتاب الأشربة لابن قتيبة ، والمقامات اللزومية ، وتذكرة ابن العديم ، ورسائل كثير من البلغاء .

وعُنيت كذلك بوصف الخزائن الخطية في الأستانة والمدينة والقاهرة ، ولا شك في أن صحبة الأستاذ الشيخ طاهر الجزائري [1] دفعت الأستاذ الرئيس الى محبة المخطوطات والعناية بها ، فعمل على تحقيقها وهو في الثلاثين من عمره ، وظلّ على ذلك حتى أسلم أنفاسه .

وقد أخرج عدداً من النفائس ، وشجع الشباب والأقران على إخراج مثلها ، واقتنى للمجمع العلمي من صورها ما يشهد له أبد الدهر ببعد النظر ، وعمق الفهم ، وسعة المعرفة .

١٢ — رسائل البلغاء (١٩٠٨) [2] : نشرتْ المقتبس — كما قلنا — أكثر هذه الرسائل بعناية المستشرقين والشرقيين ، ثم جمعها الرجل ونشرها في مصر ، فكانت المصدر الفذ لهؤلاء البلغاء ، وما تزال . واليها يرجع الباحثون لدراسة رسائل عبد الحميد الكاتب ، وابن القارح ، والمعرّي ، وابن شرف القيرواني

(١) نقل في مقدمة « حكماء الاسلام للبيهقي » ص ٩ : « وقال أستاذي السيد محمد المبارك : تصحيح الكتب القديمة أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة » .

(٢) طبع أول مرة سنة ١٩٠٨ ، وثانية سنة ١٩١٣ ، وثالثة سنة ١٩٤٦ بمصر .

وابن قتيبة ، والوطواط ، وابن طاهر البغدادي ، وابن المدبر ... وغيرهم وقد هذبت الطبعة ونقحت عدة مرات حتى قاربت الكمال .

١٣ — سيرة أحمد بن طولون (١٩٣٩) (١) : كتب هذه السيرة أبو محمد عبد الله البلوي ، وفصّل الأمر في حياة آل طولون ، وزاد على ما في التواريخ المتداولة ، فهو أوسعها وأهمها في هذا الباب . وكانت مخطوطة السيرة من أوراق الدشت بالظاهرية ، وهي في خط قديم ، صعب القراءة ، لكن جهد الأستاذ الرئيس ذلّل العسير ويسّر النص ، فوضع أيدينا على صلات الشام ومصر للقرن الرابع الهجري كما صوّرها المؤلف . وفي صدر هذه السيرة مقدّمة علمية لحمتها الطابع النقدي ، كما عرف به الأستاذ الراحل .

١٤ — المستجاد من فعلات الأجواد (١٩٤٦) (٢) : وهذا مصدر ثمين ألّفه المحسّن التنوخي ، في القرن الرابع ، وضمنه أخبار الكرماء في الجاهلية والإسلام ، على أدب جم ، ونكت مستفيضة ، تقف لأخبار الجاحظ في البخلاء ، وتصوّر الحياة الاجتماعية في العصور الاسلامية الأولى ، تصويراً لا يخلو من مغالاة واسراف .
والنسخة التي اعتمد عليها علامتنا في طبع الكتاب أخذها من الظاهرية .

١٥ — تاريخ حكماء الاسلام (١٩٤٦) (٣) : لظهير الدين البيهقي ، وهو من أعلام القرن السادس ، جمع فيه أخبار العلماء والحكماء والأطباء ، وصوّر لنا عيشهم ودراساتهم ، وما أثر لهم من حكم ، وما وصل عنهم من تفكير .
وهو مصدر هام في الفكر الاسلامي ، يترجم للرجال في إيجاز لا تجد بعضه في المطولات . ونسخة الأصل جاءت من مخطوطات برلين .

(١) طبع في دمشق ١٩٣٩ ، وهو في ٤٠٠ صفحة .
(٢) طبع في منشورات المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٦ .
(٣) طبعه المجمع العلمي في منشوراته بدمشق سنة ١٩٤٦ .

١٦ — كتاب الأشربة (١٩٤٧) [١] : لابن قتيبة ، يجمع الأدب والفقه في لغة مشرقة ، وأخبار لطيفة ، وقد طبع الكتاب من قبلُ المستشرق أرتور كي ونشره سنة ١٩٠٧ ، وأعاد علامتنا طبعه على ثلاث نسخ مخطوطة ، فجاء وافياً بالتدقيق والتحقيق .

١٧ — البيزرة (١٩٥٣) [٢] : وهذا الكتاب في الصيد وآلاته ، والحيوانات وأضرابها ، وما قيل فيها من أدب طريف وشعر لطيف ، وقد نسب الى كشاجم حيناً والى بازيار العزيز بالله الفاطمي حيناً آخر ، صححه علامتنا الفقيد وكتب مقدمته ، وكان آخر كتبه [٣] ، انتهى بعد موته ، فقد كان يراجع فيه خلال مرضه الأخير ، ولعله قضى وهو يصحح كلماته ، وحشرج وهو يفكر في ألفاظه ، فأسلم الروح وبين يديه كتاب جديد ينفع به العربية ، وعمره قد أربى على السابعة والسبعين أنفقها في السعي والجد من غير أن تعرف حياته معنى للراحة أو مغزى للاستقرار .

فكان إماماً في الصحافة ، وحجة في التحقيق ، وعلماً في الكتابة والتأليف ، ورئيساً جليلاً ، وزعيماً من زعماء الفكر في سوريا للقرن العشرين .

رحمه الله رحمة واسعة ، وألهم الشباب ان يقتدوا بجده وسعيه .

---

(١) من مطبوعات المجمع العلمي بدمشق ١٩٤٧ .

(٢) طبع في المجمع العلمي بدمشق ١٩٥٣ .

(٣) نشرنا في آخر هذه الرسالة صورة لخطه قبيل وفاته ، وهي صفحة من مقدمته لهذا الكتاب ، لعله من أواخر ما كتب — رحمه الله — .

نموذج من بيان الأستاذ الرئيس

في عشر الثمانين (١)

يا نفسُ هو ذا الحادي يهيب بك لاجتياز المرحلة الأخيرة دراك ، وخفي في خفتٍ من أثقالك للحاق بمن تقدموك من الأهل والعشير ، فالوقت ضاق وأنت على أوفاز ، والمنزل منزل قُلعة .

يا نفسُ لا تغضبي ولا تعتبي فقد عُمِّرتِ طويلاً ومتعت كثيراً ، وفتنت بجمال الوجوه وجلال الطبيعة ، وهمت بصنع الخالق والمخلوق ، واستكثرت من الخلاّن والمعارف ، وسعدتِ إذ كنت أقرب الى التفاؤل من التشاؤم ، والى الرجاء أدنى من القنوط ، والى السرور أكثر من الغمّ ، وعشتِ في سلطان الرضا طيبة الطعمة لا يد لأحد عندك .

علموكِ ما كانوا يأملون منه إعدادكِ للتجارة تغتنين منها كما اغتنى أجدادك فأخفق تقديرهم ، وهدتك الفطرة لأمور أخرى رفعتها فوق كل اعتبار ، وصرّفتِ فيها نقد عمرك اعتقاداً منك أن فيها سعادة لك ولغيرك .

أخذتِ عن أشياخ أدخلوا الملل عليك بدساتير لهم حفظوها ، وما اهتدوا الى العمل بها ، وانصرفت عنهم بشكوك ومعميات ما انحل لك بعضها حتى اتصلت بمن خرّجوك فيما غلب عليك ، وأصبحت تنظرين في الأمور نظر تدبر .

---

(١) رسمنا في فاتحة الرسالة صورة قلمية للفقيد ، وبسطنا ما للفن من أثر في حياته ومؤلفاته ، وذكرنا ما كان للمذكرات من وقع شديد في نفوس كثير من قرائه لغلبة العاطفة عليها ، فالرجل أديب فنان ، وها نحن اولاء ننقل من هذه المذكرات صورة قلمية كذلك رسمها بيده في بيان مشرق ، كأنه ينعى نفسه ، وهو من أطيب ما ترك .

واقتديت بأرباب العقول قبلك فيما لم ينكشف لك سره ، فسلمت كما سلموا واستسلمت كما استسلموا ، واغتبطت أن أرضيت هواك فيما قرأت وبحثت ، وفيما سجلت ودوّنتِ .

وحظكِ الحظ فما أليفتِ إلا أولي الفضل ، وما حرصتِ إلا على صداقتهم ، ولا اختلفتِ إلا إلى مجالسهم ، وما شاقكِ إلا سماع أخبارهم ، وكنت على الأكثر لا تصحبين إلا من تستفيدين من علمه وتجربته ، وتفرّين من الأحاديث الغثة فرارك من الطعام الواحد ، والمنظر الواحد ، والنغم الواحد . وما كنت كذلك شهد الله في حبك ووفائك .

هان عليك ما أنفقتِ في الضئيل من المعرفة التي كتب لك تحصيلها ، وكان استغراقك ساعة واحدة فيما ولعتِ به ، يوازي في نظرك أكثر المسرات والشهوات .

درجتِ على بغض الفوضى وحب النظام ، وآثرت ثورة الأفكار على ثورة السلاح ، ودققتِ في حساب يومك وغدك ، وأيقنت ألاَّ مجد إلا من طريق المعرفة ، فأحرزت لك شهرة سعيتِ وراءها لأول أمرك ، فلما بلغت ما أربى على رجائك رحت تزهدين فيما صرتِ اليه ، وتندمين على فتراتٍ ضاعت سدًى وإن أكسبتك مرانةً ومرونة ، وأفادتك عبرةً وتجربة .

كان يلذك ما ينهال عليك من الضربات في تأييد حقٍ ، وتقويم مائل ، حتى صار ذلك فيك خلقاً وجبلة ، وما عبثت بمن كانوا يحاولون التسلق الى الشهرة بالحط منك ، وكنت تفرحين بما يتم إذا أسفر عن تحقيق شيء مما تتوهمين غناءه .

علمتك الأيام التحلم وما كنت حليمة ، وزينت لك اللين وكنت جامحة ، وأخذتِ من حوادث الدهر دروساً في الصبر والأناة بقدر ما سمح به مزاجك ، وما تقاضيت الناس ما لا يملكون ، وعذرت بعضهم على ما هم فيه ، وما كلفت الأيام ضد طباعها ، وما أحببتِ أن تستثمري أحداً ، ولا أن يستثمرك أحد ،

وقلما أتيتِ شيئاً وندمت عليه ، وما حزنت لرزية في مال ولا جاه بقدر حزنك لفقد الحبيب وفراق الصديق ، وبخاصة إذا كان ممن خدموا العقل بعقلهم ، وشادوا للفضل قصور العز من فضلهم . وكنت تتخلين عن أصحابك في أفراحهم ولا تتركينهم في أتراحهم كأنك من إخوان الضراء لا إخوان السراء ، إذا أقبلت الدنيا على الصاحب تبتعدين عنه ، وإن أدبرت تكثرين من مؤاساته .

وأكثر ما آذاك في طويل أيامك أن كنت تشهدين قوى عظيمة ضائعة ، وطريق الاصلاح مهيعاً أمام أصحاب السلطان وهم لا يسلكونه ، فطالبت طغاة الاستبداد بالقيام بواجبهم ، فساءتهم جرأتك عليهم ، وتربصوا بك الدوائر . وقاتلتِ الشعوبيين أعداء العرب من الترك والصهيونيين والافرنج فشقّ عليهم سماع صوت الحق ، وما استطاعوا أن ينالوا منكِ على ما حشروا من أبالستهم ، وافتروا من إفكهم ، وأنت عزلى لا سلاح لك إلا الحق الذي أخذ من قلبك ، وإلا الغرام باستعادة عظمة الأمة والملة .

ومن أشقّ ما مرّ بك أن كان أرباب المحك يحملونك على إثبات المثبت والتدليل على البديهي ، وان اضطررت الى عشرة قوم كان الجهل فاشياً في سوادهم الأعظم ، وقضى عليك بعد ذهاب من أخذت من أدبهم ، واستهووك بأخلاقهم ، أن تسمعي هراء أدعياء لو أنصفوا لعادوا الى الكتاب ، يبتدئون بالعلم من كتاب الهجاء .

عاداكِ من عاداك عداء المتباينين في العقلية والثقافة ، ووجهو اليك من التهم ما كان في وسعك رده لو جوّزت إضاعة الوقت في مهاتراتهم . ومما قرفوك به أنك مستبدة فيما يبدو لك ، مفرطة في حرية رأيك ، حلوة الصداقة مرة العداوة ، ضنينة بجاهك ، تكثرين من قول « لا » أكثر من قول « نعم » ، وهم كانوا يريدونك أن تشهدي للمحق والمبطل وتدخلي فيما يعنيك وما لا يعنيك ،

وقاعدتهم ألا ضرر من العبث بحقوق الجماعة إذا كان منه تنفيس كربة الفرد ، ومن مألوفهم أن كل من قصد إنساناً في أمر يقضي عليه الظرف ألا يرده خائباً .

وعابوكِ أنك تظهرين بمظهر الشذوذ والخشونة في الأحايين ، وتخرجين على بعض مصطلحات القوم فتكسرين قيود الرسميات ، وتبالغين برعاية من لا تجب مراعاته ، إذا تخيلتِ فيه ناحية أعجبتك ، فتلبسينه ثوباً أطول من قامته ، وتجملينه في عيون البعيد والقريب والبغيض والحبيب .

يا نفسُ ، الحق مرٌّ والصادع به معذَّب ، وصاحبه أبداً هدف لطعن الطاعنين ، ومن يحاول إصلاحاً وتجديداً فهو عرضة للمصفقين والمصفرين ، ولا يكربنك هذا فالمتعنتون ما اعتادوا أن يستجيبوا لأول صارخ يحاول زحزحتهم عن عقائدهم ، ومتى هشّ أرباب الأرواح الجامدة لمن يحاول إدخال روح جديد عليهم ؟ والناس ما خلقوا كلهم عقلاء وحكماء .

وكيف تطمعين يا نفسُ في رضا الظالم والجاهل ، وأنت ما حلا لك غير مكافحة المستبدين والسارقين ، ومنابذة المخرقين والمضللين ، وكنت معهم بين عاملين : إما إقرارهم على فسادهم فتعدين من المنافقين ، أو الإنكار عليهم وتحمل أذاهم فتقومين بواجب وتؤدين ديناً .

سخرتِ من المتجرين بالوطنية ، وأنحيت على المتأكلين بالدين ، وعبثت بالواغلين على الأدب ، وعبت المدجلين بالعلم ، وعند نفسك أنك لم تحاملي ولم تجاملي ، وأنك أنصفت من انتقدت ، وما تعمدت أذى من زيفت كلامه ، وخالفك في آرائه .

ومن يحاول تهجين المعتقدات ، والقضاء على الخرافات والترهات لا يطرب صوته كل سامع . أنتِ أردت العقل أن يجرىَ طليقاً من القيود الثقيلة ، وأصحاب الأهواء حبب اليهم الجمود على قديمهم ، والاكتفاء بما ورثوه من

آبائهم وجدودهم ، وما خطر ببالهم أن يعملوا أفكارهم في اقتباس الأصلح ، ولا أن يتعبوا أنفسهم في إدراك ما لم يسبق لهم معاناته .

أنتِ يا نفس لم تحسدي وحسدت ، ولم تشمتي وشمت بك ، ولم تؤذي وأوذيت ، وكنت تمجدين العاملين ، وتأخذين بأيدي المبتدئين ، ولا تضنين بما تعرفين ، ولا تدّعين علم ما لا تعلمين . وإلى هذا كنتِ تهللين بسقوط المنافقين والمتجسسين ، وتتهللين يوم يدبّ التزبق في أموال جمعت ببيع المروءة وفساد الذمة .

أنتِ ما عاديت إلا مأفون الرأي ، وما شاكستِ إلا زعانف الحشوية ، وما تأففتِ إلا من زبانية السياسة ، وإذا غلوت في القضاء على غلوائهم ، فعذرك كونك من الآدميين يجوز عليك ما يجوز عليهم من ضعف وغلط . والتيار قد يقذف بالواقف في جريته الى مخاضات لا يختارها .

كرهتِ يا نفس التعصب والعصبية ، وحاربت الجهل والأمية ، وفضحت مذاهب الصوفية والباطنية ، ومقتّ الحزبية والجمعيات السرية ، وتفانيت في الدعوة الى الاستقلال وحب القومية ، ودعوت جهرة للعرب والعربية ، وللاسلام والمدنية الغربية . خطة واسعة لو اقتصرت فيها خفّ ما حمّلته ، ولجاءت الثمرة أكثر جنىً وألذّ طعماً ، ولكن من الأمور ما لا تتجلى للبصائر أسراره لأول نظرة ، وللأيام والبيئات حكمها ، والغيب عنك مستور .

عاشرتِ أجيالاً ثلاثة : كان في الأول معلموك ومؤدبوك ، وفي الثاني إخوانك ومعارفك ، وفي الثالث المستحسنون والمستهجنون لعملك . وكان جيلك الأول خير أجيالك لما تخلله من آمال وأحلام ، وبشارات بما كنتِ ترتجين في دنياك من استفاضة الصيت وإرادة النفع .

جهدتِ كأن الموت لا يلاقيك وكنت كل يوم تتوقعينه ، فما قصَّر حسابك له من أجلك ولا زاد فيه . وتعرَّضت للهلاك غير مرة فنجوت لا بحسن حيلتك بل بقضاء وقدر .

وأدركتِ بأخرة أن ليس في العالم أمس واليوم وغداً غير التكرار ، وأن البشر في بلاء ومحنة ، فإذا خرجتِ من هذه الفانية وحسناتكِ عدل سيئاتك ، أو شالت الحسنات قليلاً في ميزانك ، فقد فزتِ فوزاً عظيماً . وأنتِ إذا لم يحقق الزمن أغراضكِ كلها فلست أول من أعوزته القوة وخانه التوفيق ولا أول من برد فدفن في التراب . فلا تسألي خالقكِ بعد الذي جرى لك إلا العفو والعافية .

محمد كرد علي

١٧

وفي الختام اتقدم بالشكر لاصدقائي الذين عاونوني في نشر هذا
المصنف الأنيق ومنهم العلامة الشيخ رضا الشبيبي العراقي
فقد تفضل وزودني بمعلومات في كتب البيزرة وكذلك كان
من العلامة الدكتور داود الجلبي الموصلي فقد تفضل [illegible]
[illegible] ما اطلع عليه من كتب هذا الفن ولاسيما ما كان مخطوطاً
في خزائن الموصل. واشكر للاستاذ المحامي عباس العزاوي البغدادي
تكرمه بكتابة فصل في البيزرة فيه ثبت بما عرفه من كتب في
خزائن العراق والاستانة وغيرها ~~وخزائن [illegible]~~
~~[illegible]~~ واشكر
للاستاذ المحقق كوركيس عواد تفضله بمعارضة قصائد
ابي نواس من ديوانه المخطوط ومن صورة شمسية
محفوظة في خزانة المتحف العراقي. واثني بشكري ~~[illegible]~~
الى الدكتور سامي الدهان لمعارضته بعض قصائد ابي نواس
عن مخطوطة ديوانه المصورة ~~[illegible]~~ والاستاذ سامي
الكيالي لمعاونتي في حل بعض الالفاظ المغلقة أو عنايتهم بالكتاب
بتصحيح ~~التجارب~~ تجاربه ووضع فهارسه.
جزاهم الله عن الآداب خير الجزاء

دمشق ٢٢ ذو القعدة ١٣٧١ محمد كرد علي
١٢ آب ١٩٥٢

نموذج لخط الأستاذ الرئيس محمد كرد علي قبيل وفاته ، وهي صفحة من مقدمته لكتاب (البيزرة) آخر ما نشره ـ رحمه الله ـ

مؤلفات الأستاذ الرئيس

		الصفحات		السنة
١ — قبعة اليهودي ليفهان	(بتيمة الزمان)	٠٤٠	مصر	١٨٩٤
٢ — الفضيلة والرذيلة		٢٦٧	مصر	١٩٠٧
٣ — المجرم البريء	(أربعة أجزاء)	٨٠٠	مصر	١٩٠٧
٤ — تاريخ الحضارة (شارل سنيوبوس)	(جزء)	٢٢٠	مصر	١٩٠٨
٥ — رسائل البلغاء		٥٢٢	مصر	١٩٠٨، ١٩٤٦
٦ — غرائب الغرب	(جزءان)	٦٤٠	مصر	١٩١٠
٧ — البعثة العلمية الى دار الخلافة الاسلامية		٢٩٦	بيروت	١٩١٦
٨ — الرحلة الأنورية الى الأصقاع الحجازية		٣٠٠	بيروت	١٩١٦
٩ — خطط الشام	(ستة أجزاء)	١٩٤٠	دمشق	١٩٢٥—١٩٢٨
١٠ — القديم والحديث		٣٤٦	مصر	١٩٢٥
١١ — الاسلام والحضارة العربية		٩٤١	مصر	١٩٣٤
١٢ — أمراء البيان	(جزءان)	٥٧٨	مصر	١٩٣٧
١٣ — سيرة أحمد بن طولون		٤٠٠	دمشق	١٩٣٩
١٤ — دمشق مدينة السحر والشعر		١٥٢	مصر	١٩٤٤
١٥ — المستجاد من فعلات الأجواد		٢٨٤	دمشق	١٩٤٦

	الصفحات	السنة
١٦ — تاريخ حكماء الإسلام	٢٠٤	دمشق ١٩٤٦
١٧ — أقوالنا وأفعالنا	٤٢٧	مصر ١٩٤٦
١٨ — الأشربة	١٢٧	دمشق ١٩٤٧
١٩ — المذكرات (أربعة أجزاء)	١٣٢٠	دمشق ١٩٤٨—١٩٥١
٢٠ — غوطة دمشق	٣٥٨	دمشق ١٩٤٩
٢١ — كنوز الأجداد	٤٣٦	دمشق ١٩٥٠
٢٢ — البيزرة	٢١٢	دمشق ١٩٥٣

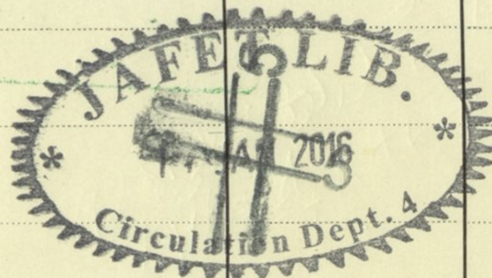
(بلغ مجموع هذه الصفحات ١٠٢٥٤ تقريباً ، عدا مجلة
(المقتبس وقد صدرت في تسعة أجزاء وتبلغ ٦٤٧٦ صفحة)
(وجريدة المقتبس أصدرها مع أخيه خلال سنين عدة)

الفهرس

الصفحة

الصفحة

آثاره ومؤلفاته


JAFET LIB.
* *
2016
Circulation Dept. 4